مصطفى صادق الرافعي وادبه

بقلم

كمال يوسف الحاج

وهي رسالة قدمت الى الدائرة العربية لنيل شهادة استاذ في العلوم

١٩٤٦

المقدمة

- ١ -

لماذا اخترت الرافعي؟

لا استطيع، مهما كان النهج الايجابي الواجب عليّ سلكه في هذه الرسالة، ان اتهرب من شعوري تهرباً [illegible] يقضي على طابعي الخاص الذي عرفت به تجاه نفسي. لذلك [illegible] انني اعرض الرافعية على ضوء مفهومي رغم واجب التجرد عن كل ميل شخصي وهوى في القلب. ولنفترض ان الواقعية ممكنة في حقلي المادة والعلم، فلا بد للمثالية من أن تلعب دورها في الميدان الادبي، لان [illegible] الذوق الفرديّ هو المقياس الاهم للحكم على الانتاج. ومهما حاول المرء ليخرج من جلدته ويُقصي عنه وجفات قلبه (فانا) دائماً وابداً هي التي تصبغ الحياة كلها بالوان الفؤاد وترش على الجماد بوارق من لوامع النفس. ومَن من الناس بمكنه الاّ يكون ذاته عينها مهما كان بحثه، حتى وان وقف عمله عند حد التبويب. وبالانفصال عن (انا) يفقد الانسان هذه الطاقة الذرية في باطنه، فيفقد هكذا ظل نفسه، بل يفقد نفسه وبذلك يفقد ادراك (انت) (وهو)، ويجهل الطبيعة ايضا. فكوننا (انت) (وهو) اكثر ما نكون (انا) معناه بالواقع اننا لا نفهم (انت) و(هو) حق الفهم. ولا اعتقد ان العلم يعمل على طمس معالم (انا) في الانسان، لان الواقعية الحقة لا تحاول محق الذاتية. ولا اظن ان النفوذ الى (انت) (وهو) يكون بغير الانطواء على (انا). ففي كل واقعية صحيحة بعض المثالية، وفي كل مثالية صحيحة بعض الواقعية.

لذلك اذا كتبت عن الرافعي فانني اكتب عنه كما رايته في نفسي وشعرت به، [illegible] فلا اطلق حكما عليه الا (وانا) في بعض هذا الحكم. واذا انكرت اعجابي به [illegible] عن جبلتي التي فطرت عليها انكر نفسي. غير انني لن ادع تعصبي له يحجبني عن هفواته. فقد نثر [illegible] احيانا، كانه يرغم الالفاظ على قول ما لا تريد قوله. اما عهدي به فانه لا يحيد كثيرا. ويعود الفضل في ذلك الى والدي الذي [illegible] اوقفني على بعض الجمال في اسلوبه وتفكيره فكانت لغته وفلسفته السببين اللذين دفعا بي الى اختياره موضوعا لهذه الرسالة، وادركيا انهل منه غذاء لروحي وقلبي.

لغته =

مما لا ريب فيه ان اللغة ذات قوة فعالة لابراز المعاني. فبين اللفظة والفكرة من التساوي ما يفقد الفكرة بهاءها اذا لم تقذف الى اذهان الاخرين بتعبير صحيح قويم. فالتمكن من مفرداتها هو السبيل الوحيد مع الابداع البياني، لاستهواء القارئ وايقاظ الافكار الهجيدة فيه. وقد رايت في ادب كتابنا المحدثين اغضاء الطرف عن هذا المبدأ، واستخفافا بماهية اللغة والتنقيب عن كنوزها في بطون امهات الكتب العربية القديمة. وانا اعتقد ان التتلمذ على ايدي الاسلاف في ميدان التعبير هو النهج الفريد لاداء الفكرة ناصعة سلسلة، وتسديد الرمية محكمة في سبيل الاصابة المعنى المقصود. وقد رايت في ادب الرافعي مزايا الجملة العربية. فهو طود راسخ يرسل الفاظه كانها قلع منيعة لا تشوبها الركاكة ولا يعتريها الضعف ولا يفسخها التفكك

يفسخها

فهو من اقدر من كشف عن دواخل افكاره بلغة منحوتة، ومن ارجل من هزّ قلما عربيا في ادبنا الحديث.
ويرجع ذلك الى ثقافته العربية الخالصة، وقد اخذها عن ابيه واساتذته، فلم يلقن لغة اجنبية الا النزر اليسير من الفرنسية لا غير. ولا إخال القارئ يجهل ان ذلك يقوّم اللسان في اللغة الام. وهكذا سلم انشاؤه من الركاكة فتناسب بين الافكار والالفاظ بتهذيب عبارته كخياط يقدر الثياب على قدر الاجسام.
لقد جعل الرافعي القرآن في اوامره مادة اولى لحياته الادبية دون أن يصطدم منذ البدء بخير ثقافته العربية التقليدية التي رسخت في عائلته من السلف الى الخلف، فاطلع على اخبار الاقدمين ونهل من بلاغتهم في مكتبة ابيه [illegible] وكان اساتذته امثال الجاحظ وابن المقفع وابي الفرج الاصبهاني، لذلك نراه مشبعا بجوهم متسربلا بوشاحهم حتى تشربتهم روحه وبهذا صار قطعة منهم او انهم صاروا في صميم كيانه الادبي. فلا غرابة من ثم اذا كان بانشائه اقرب الى القديم منه الى الحديث. وما ذلك بالعيب يؤخذ عليه الا القليل النادر. وانا اعتقد بان الرجوع الى بعض الكتب القديمة واستخلاص روح الجملة العربية منها لازمان للاديب الحق. ولا اعني بذلك وقف اللغة عن التطور حسب مطالب الزمان والمكان، فانا ادين ببعض مبادئ النشوء والارتقاء، غير ان التطور الحقيقي لا يكون طلاقا مبرما بين ما فات وما هو آتٍ.

اما الدافع الثاني الذى حملني على اختيار الرافعي فهو ميله القوي للتامل في غوامض هذا القلب الانساني وازاحة الستائر عن مصون طويته. وكم من مرة دخلت الى ذاتي من ذاته وانا اطالع ادبه فكانت هنيهات وددت لو استطالت فاصبحت آبادًا وازالا لعظم ما كان ينتابني من قشعريرة صوفية تنفذ فيها نفسي من ارضية الحواس الى سماوية الروح بالتامل والمكاشفة. فهو يسدد نظراته كالمسبار المحكم في اغوار الانسان ليظهره صافيا في واقعة خاليا من غبار يستره، فيبافت قلبك في عقر دارك كيف يهمس همسات بكر، وكيف ينبض نبضات صريحة، وكيف يخفق في قراره خفقات الحب والالام. وهكذا يغذي الفكرة كما يغذي الحاسة الفنية للتعبير عنها، حتى اذا قراته وكنت على شيء من التذوق للحقيقة والجمال رايته يضعك امام مشاكل الحياة بجهد في العاطفة يحاول بها ان يسلكك في مجاهل الغيب الكائنة خلف الطبيعة، واتصاله بالانسان العام في كل انسان، بالطبيعة العامة في كل انسان.

في الرافعية ابعاد فكرية تنمي فينا ملكة التقصي، وتدربنا على حب التشوف الى المجهول وراء المعلوم.
فهو من اولئك الذين اوتوا النظر القصي بقبسات جمالية خالدة، والسباحة في بحار النفس لاصطياد اصدافها وجواهرها.

كذان هما السببان اللذان دفعا بي الى اختيار الرافعي وساغض الطرف اذا امكنني ذلك عما جاء في كتبه من جدل عنيف اللهجة بينه وبين بعض ادباء عصره، لانه يخرج عن حيز الادب الصافي الذى يستحق البقاء في وديعة الخلود. فهو [illegible] مما سيطويه النسيان.
وما غرضي في هذه الرسالة الا استخلاص ما صفا من ادب الرافعي كما اراه (انا) لا كما يراه غيري ممن نظروا اليه من خلال شعورهم.

فلسفة =

كمال [illegible]

عرض عام لأشهر مؤلفات الرافعي .

تاريخ آداب العرب

هو الكتاب الثاني في عالم ~~التاريخ الذي وضع للأدب للآداب العربية~~ تاريخ الآداب العربية وضع بعد مؤلف جرجي زيدان .
"وقد سبقه هذا الاخير بشهر او شهرين سبقا مطبعيا . وكانت مقالات الرافعي في ~~الجنينة~~ (الجريدة)
وكتابه (" تاريخ آداب العرب" من بعد هما السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية.
وهما السبب كذلك في وضع ما وضع من الكتب في هذا الباب)[1] انقطع الرافعي الى تاليف هذا
الكتاب في منتصف من سنة ١٩٠٩ الى آخر سنة ١٩١٠، وهو الكتاب الذي قال عنه الامير شكيب ارسلان
((لو كان هذا الكتاب خطأ محجوبا في بيت، حرام اخراجه للناس منه لا ستحق ان يحج اليه؛
ولو علق على غير كتاب الله في نواحي الاسحار لكان جديرا بان يعكف عليه))
اختلف الرافعي في نهجه التاريخي للآداب العربية عمن سبقه اولحقه ~~[illegible]~~ في هذا
الميدان. فقد سلك المورخون مسلكا تاريخيا دارسين تطورات الادب العربي وفقا للتموج التاريخي
والتتابع الزمني . ~~[illegible]~~ فاذا بهم يقسمونه الى عصور متلاحقة كالعصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام
والعصر الاموي والعصر العباسي ... الخ وبذلك ساروا سيرا علميا مجردا . غير ان الرافعي
ابى اتباع هذه الخطة فراح يدرس آبنا على ضوء القرآن لا غير معتبرا اياه في ذلك نقطة
الانطلاق والارتكاز التي اندفعت منها جميع الصفوف الادبية عند العرب . ومن هنا قوله ((بهان الرجال
في تاريخ الادب الاوروبية هم قطعة التي يتألف منها لانهم متصرفون في اللغة كانما انما
توضع لعهدهم اوضاعاً جديدة في كل رجل منهم في طريقته ومذهبه فن علم او هو على الحقيقة
~~[illegible]~~ قطعة متميزة في تركيب التاريخ العقلي . ولكن الرجال عندنا في قياسهم باولئك ينزلون
منزلة التشبيهات من المعاني الاصلية الا ما ندر ولا حكم للنادر . وذلك لان في لغتنا معنى
~~دينيا~~ دينياً هو سرها وحقيقتها فلا تجد من رجل روى او صنف او املى في فن من فنون ~~الآداب~~ الآداب
اول عهدهم بذلك الا خدمة ~~[illegible]~~ للقرآن ~~الشريف~~ الكريم ثم استقلت الفنون بعد ذلك وبقي اثر
هذا المعنى في فواتح الكتب. والقرآن نفسه ~~[illegible]~~ حائنة ابية من المعجزات الحقيقة التي
لا شبهة فيها وان لم يفهم سر ذلك (من لا يفهمونه). افيصلح بعد هذا ان يكون تاريخ الادب
العربي مبنيا على غير حوادثه التي كونته وتعلق باكثرها رجاله دون ان تتعلق بهم كما
هو الشان في سواه ..
((على ان ~~المتشرقين~~ المستشرقين فيما ارى لم يختاروا ذلك الوضع الا لمكان العجمة منهم اذ لا سليقة لهم
في العربية وادابها وان كان منهم روس في بعضرفنون التاريخ العربي ثم لانهم يتعجلون الفائدة

(1) حياة الرافعي لسعيد العريان وجه ٥٢

كيف اصابوها فأيا ما يضعوا من ذلك فلهم به فضل . ثم هم يكتبون لانفسهم ولاقوامهم فلا يبالون بما تفتق عليهم هذه الطريقة التي يستعوون عليها . ولكن ما بال ادبائنا اصلحهم الله قد اضلوا الحجة وجهلوا بموضع الشبهة فتتابعوا على غير نظر وكانوا جميعا في ذلك كإنّ واخواتها فيما يعمل وما يكف ... وما بالهم وهم بقية العرب واهل اللسان وحفظة الكتاب لا يانفون ان يعدوا من "ادبيات اللغة" تاريخ علم الفلك مثلا وان كانت روائع الالفاظ تشبه بالنجوم، ولا ان يقرنوا علم الصرف بعلم الكيمياء وان كان لكل منهما "وزن" معلوم. ان صنيع اولئك (المستشرقين وهولاء (المستغربين) لا يعتبر في حقيقة التاليف الا توسعا من ضيق وتوفيرا من قلة واغراقا في الحشد والاجتلاب. والفرق بعيد بين علم يورد منه المولف اشباعا لكتاب وبين كتاب يفرده اشباعا للعلم النفس. ولهذا بقي تاريخ اداب العرب محتاجا الى طريقة اخرى لا يختصر فيها الزمن بسرعة النقل ولا يرفه على الفكر بهذا "الاضطراب الرياضي" في وثوبه بين الكتب ولا يُستر فيها قبح التاليف بحسن التقسيم ولا يقوّى ضعف المعنى بما يكون من العناية ولا تنفتق الفصول الطريفة سمنًا بما تلبس من الاوراق الكثيرة ... ولم تسقط دولة العقول في هذه الامة الا منذ ابتداء العلماء يعتبرون العلم كما هو فتهافتوا على ذلك باختصار الكتب وشرحها وتفتيقها بالحواشي والتعاليق (الهوامش) وتلخيص المتون ونحو ذلك مما يورث الاضمحلال، ويفقد العقل معنى الاستقلال ويجعل القرائح كالظل المتنقل كل آونة يقرب الى الزوال ... وقد بلغ من اثر ذلك ان صار العلماء يجهلون حتى اسماء العلوم التي لم تمسح على ايديهم وخاصة في مصر فهذا شيخ الاسلام محمد بن عبد البر السبكي المتوفي بدمشق سنة ٧٧٧ هـ يقول انه يعرف عشرين علما لم يساله عنها بالقاهرة احد . ونقلوا عن القاضي عز الدين بن جماعة المتوفي سنة ٨١٩ وهو الذى كان يفاخر به المصريون علماء العجم في كل فن ويشيرون اليه في انواع المعقول - انه كان يقول اعرف ثلاثين علما لا يعرف اهل عصرى اسماءها . وكل ذلك من وناء الهمم واجتماع العلماء من هذه الشروح على ما يشبه تشريح الرمم حتى ليس الا قال وقيل واقول قلتُ وقلتُ وفيها قولان . ولعمرى ما جبل (قاف) الا جزء من هذه السليلة ...

((واذا كان عمود التاريخ سياقة الحوادث كما اسلفنا فلا تُرغم هذه الحوادث على ان تقع في غير وقتها وتنفصل عن طبيعتها وتتصل بغير طبقتها في التاريخ ولذلك راينا الطريقة المثلى ان نذهب في تاليفنا مذهب الضم لا التفريق وان تجعل الكتاب على الابحاث التي هي مظانها

الحوادث لا على العصور فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب كما يفعلون وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه الى منتهاه متقلبا على كل عصوره سواء اتسقت ام افترقت فلا تسقط مادة من موضعها ولا تقصر على غير حقيقتها ولا تُلجاء الى غير مكانها ثم لا يكون بعد ذلك في التاريخ الا التاريخ نفسه لا ما يزيّن به من العبارة المونقة ولا ما تُوصّل به الحقائق القليلة من تصورات الخيال وشعر التأليف الى امثال ذلك من مواضع الاستكراه وضيق المضطرب وامثلته فيما بين ايدينا ماثلة لا تحتاج الى انتزاع، وهي على نفسها شاهدة فلم يبق في امرها نزاع. واذا تدبرت طريقتها هذه وقابلت اثارها بما شئت من اثار الطريقة الآخرى واحكمت ذلك بعقل راجح وانعمت فيه بنظر غير مدخول رايت اى هذه الكتب احسن قياما على تاريخ الادب واوفى بالحاجة منه وارد بالفائدة على طالبه وتبينت ايها اضعف منزعة من الرأي والتبيير في طريقته بما يكشف لك خلو باطنه من ورم ظاهره، وما تجده من سرعة الاتصال في هذا "الفراغ المعنوى" بيّن اوله واخره.(1)

(1) تاريخ آداب العرب من صفحة ١٢ الى ١٧

اعجـــــــــاز القرآن

هو الجزء الثاني لتاريخ آداب اللغة العربية وقد خصصه الرافعي للبحث في اعجاز القران. ولا عجب ان يكون قد افرد للقرآن كتابا برمته يبحث فيه عن اعجازه ما دام يعتقده الوضع الاساسي لجميع ما تفرع وتشعب في الادب العربي . وكأني به من جهة ثانية يكتب هذا الكتاب ليدافع به عن عقيدته الدينية وينفي ما جاء به بعض الكتبة من اننا في عصر عقلي يجب علينا فيه ان نخضع كل شيء الى المحك المنطقي. والرافعي المسلم المستميت في سبيل عقيدته الاسلامية يابى مثل هذه التعاليم قال ((على انك ترى اصحابنا العلماء ... لا يتحاملون على شيء ما يتحاملون على القرآن الكريم فهم يخصونه بمكاره العلم كلها ، ويجفون عنه اشد الجفاء ، وانهم واياه في غرورهم واوهامهم كالطيارات تحسبها ان تصعد في الجو فمضت حاشدة في حملة حربية الى فلك الشمس .

" الان دون هذه الشمس سنن الكون وقوانين الاقرار ونظام الابدية ، بما تستوي عنده طيارات الارض وذبابات الارض .... حتى ما بين هذه وهذه منزلة او فرق ، وان جعل العلم بينهما فروقا وفروقا ومنازل ومنازل ..". دع جهلهم باللغة واسرار البيان ، فهو السبب الحق الذي ضل بهم وجعلهم يرون القرآن كلاما من الكلام يجرون عليه الحكم الذي يجري على غيره ، كما يظن الجاهل الذي ليس في نظره معان عقلية - دع هذا او خذ في السبب العلمي الذي ينقمونه من القرآن ؛ فهم يرونه صورة من الثبات والاستقرار ، ويعلمون ان العقيدة قد محته من قانون التحول والتغير وجعلته في ذلك قانونا وحده ..... لا يعلمون (اصلحهم الله) ان استقرار القرآن هو شريعة واخبار وآداب ، هو بعض ادلة اعجازه ، بل اقواها ، بل دليلها الزمني المنسحب على الزمن اذ كانوا قوما يجهلون ولا يحققون))(1) على ان الكتابة آية من ايات النظم الانشائي في عصرنا. والحق يقال بان الرافعي معجز في اعجازه ولذلك يدق عن الافهام في الكثير من الاحيان فيغرب وكانه يخاطب من وراء الستار الغيبي او يطل عليك بذهنيات بعيدة المدى. واجمل ما في الكتاب بلاغته التي ما بعدها بلاغة في تحليل الحروف والكلمات والجمل. وهي جولات فلسفية حول ماهية اللغة يبز فيها اعاظم كتبة الغرب. وقد برهن الرافعي انه من ائمة هذه اللغة حقا فاسمعه مثلا كيف يحلل بدقة معرفة نفسية الكاتب من انشائه قال ((فقد ثبت لنا من درس اساليب البلغاء ، وترداد النظر في اسباب اختلافها ، وتصفح وجوه هذا الاختلاف ، وتعرف العلل التي اثرت في مباينة بعضها لبعض ، من طبيعة البليغ وطبيعة عصره - ان تركيب الكلام يتبع تركيب المزاج الانساني ؛ وان جوهرة الاختلاف بين الاساليب الكتابية ، في الطريقة التي هي موضع التباين ، ولا في الصنعة كالمحسنات اللفظية ونحوها ، انما هو صورة الفرق الطبيعي الذي اختلفت الامزجة النفسية بعضها عن بعض ، على حسب ما يكون فيها اصلا او تعديلا كالعصبي البحت ، والعصبي الدموي ، وغير ذلك مما هو مقرر في الفروع الطبية ؛ حتى كأن الاسلوب في انشاء كل بليغ متمكن ليس الا مزاجا طبيا للكلام ، وما الكلام الا صورة فكرية من

(1) اعجاز القرآن وص ط

من صاحبها . وقد امعنا في هذا الاستنتاج ،وقلّبنا عليه كل ما نقرأوه من اساليب العربية (وهي معدودة) ومرنا على ذلك زمنا؛ حتى صار لنا ان نستوضح اكثر اوصاف الكاتب من اسلوب كتابته ، برد ذلك الى الاوصاف النفسية التي تكون من تاثير الامزجية، والتي قلما تتخلّف في الناس، وبها اشبه بعضهم بعضا، وبها كان التاريخ يعيد نفسه)(١) وقال ايضا (بيد ان طريقة البلاغة انما يراد بها تحقيق المعنى ، واستبراء غايته ، واستلاخ الشبهة منه ، واخذ الوجوه والمذاهب على النفس من اجزائه التي يتالف منها ، بعد ان تستوفي على جهتها في الكلام استيفاء يقابل ما يمكن ان تشعر به النفس من هذه الاجزاء ؛ حتى لا تصدف عنه ، ولا تجد لها مذهبا ولا وجها غير القصد اليه ؛ فيكون من ذلك الالزام البياني الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ وكان حتما مقضيا . . .

(١) اعجاز القرآن وجه ٢١٠
(٢) اعجاز القرآن وجه ٢٨٢

حديث القمر

هو الكتاب الثالث في ادب النثر اصدره بعد مؤلفيه (تاريخ اداب العرب) و(اعجاز القرآن). والكتاب هذا احاديث على لسان القمر كتبها الرافعي بعد رحلة الى لبنان سنة ١٩١٢ حيث تعرف على شاعرة كان بينه وبينها نجوى وهيام جرت في قلبه منهما ينابيع من العواطف وسيول من الخيال كانت ثمرتها (حديث القمر). وقد طبع الرافعي في اسلوبه على غرار الجملة القرآنية اراد بها انهاض هذه اللغة من عثارها وارجاعها الى ما كانت عليه من قوة وجزالة وبيان. وما دفعه الى ذلك الا كون الشعر يضيق به في الكثير من الاوقات لعظم ما تفيض به نفسه من دفق عاطفي واندفاع حساس. لهذا نزع الى النثر الفني، فكانت تلك الاحاديث القمرية. وهو كتاب نحا فيه جهة رمزية جديدة في الادب الحديث ترفعه الى مصاف اكابر الرمزيين وعباقرة الادب في الغرب ...

يشرق علينا الرافعي من خلال هذه الاحاديث بارا‌ء تأملية في الحياة . فينهج، كما ينهج في كل كتبه، نهجا وجدانيا ينفذ به الى اغوار النفس البشرية. فثمت مشكلة الزمان، والعقل، والايمان، والفقر، والسعادة، والقضاء، والقدر الى ما هنالك من عقد فكرية هي محور ما يدور عليه الكتاب. والرافعي لا يطرق هذه المعميات الا باسلوب رمزي لا باسلوب جدلي تحليلي. وهو روحاني النزعة دائماً في كل لفتاته الى الحياة، فنسمعه يقول مثلا «السلطان الحقيقي على الطبيعة سلطان الروح لانها من الله وهذه الطبيعة اداة في يد الله. فليجعل الانسان شفتيه مخزنا لغويا مملوءاً بالفاظ العلم فان الطبيعة لا تبالي بمدلول الحروف مهما حملها على ذلك باصطلاح ولكن ليجعل في قلبه علم الخير واحالة الشر الى الخير فان الطبيعة لا يسعها الا ان تخضع باحساسها خضوع الاجلال لاستاذ تلاميذتها وترفع الى الله على يده تمائم المساكين كانه الامين على آمال القلوب وتجعل الطبيعة هذه اليد نفسها كانها شكر منها لله تعالى اذا انجبت رجلا من رجالها في الارض»[1] واذا تكلم عن الحقيقة قال «ايتها الحقيقة لا يظفر بك الا سعداء الفطرة وما الطبيعة كلها الا ايمان بك ودليل عليك فلو خلص الانسان من وهمه لخلص من همه ولعرف كيف يقدر الحزن بسببه الحقيقي لا بالآمال المتوهمة التي زالت بوجوه فان تقدير المصيبة بالامل الذى كان يرجى لو لم تقع امر لا يحتمل احداً بل لا يزال يتسع من ظن الى ظن حتى يهيج السخط في نفس الحزين والسخط مع المصيبة مصيبة ثانية» واذا تكلم عن جمال الطبيعة قال «فمن اين يجتلي جمال الطبيعة وانى له ذلك وقد مسخها هذا المسخ كله ولم ياخذها من يد الله كما وضعها ولكن تناولها من فكره كما صنعها فجاء بها من ناحية همومه فكان هم جديد او ذكرى هم قديم ... اذا اردت ايها الانسان ان ترى جمال شيء من الطبيعة فاجعل عينك اقرب اليه من فكرك بل انزع فكرك هذا الا الخفيف منه كما تنضو ثيابك اذا طلبت السباحة في اليم، والا الطاهر منه كما تخلع نعليك اذا اردت الصلاة في المسجد والا الصافي منه كما تطرح شغل قلبك اذا وقفت بين يدي الله. فان انت سبحت بثيابك فانما تمثل الغرق وان دخلت المسجد بنعليك

---

١) حديث القمر وجه ٧٧
٢) حديث القمر وجه ١٢٦

الجستين فانما تمثل الالحاد وان واجهت ربك وانت مشغول بنفسك عنه فانما تمثل نفاق الشيطان وان نظرت الى الطبيعة من فكرك المادي فانما تمثل العمى الطبيعي ...»[1] وهو يخاطب القمر دائما بمثل هذا القول «ولعمرى ايها القمر اني لاشكو اليك بثي وحزني وانا جيك باحلام النفس الانسانية وانك لتجيبني الجواب الصامت البليغ فتطرح اشعتك في قلبي آخذ من بعضها قولا وارجع اليك بعضها قولا كالعاشق يرى في الالحاظ حبيبته بالنظرة الواحدة ما في نفسه وما في نفسها جميعا ...[2] وكم ناجاك ايها القمر من عاشق قبلي فانك ما انفصلت عن الارض الا ليجعل الله منك افقا لامال الانسانية الجميلة بل انا الا احسب عاشقا من لا يناجيك ومن لا ياتي بدموعه واحزانه وهواجسه وآماله فينطرح في هذه اللجة التي ترسلها من شعاعك وينغمس فيها ساعة ثم يخرج وكانه جسم من نور يخفق من جنبه قلب كالنجم ... ويترك في نورك بقايا ظلمات نفسه الحزينة تراها السماء فترى بها كيف يكون ظل هذا القلب الانساني المتألم ثم تجمع انت هذه البقايا وتدرجها في قطعة من شفق الفجر تشابه الدم الذى كانت تختذى به من الحياة وتدع الزهرة الحسناء ترسل عليها نظرة من نظراتها الفتانة لتعرف اي ثمن من الانفس والقلوب تشتري به في الارض ابتسامة كابتسامتها في السماء[3] ...»

قال الاستاذ سعيد العريان عن هذا الكتاب «وهو اسلوب رمي في الحب على ضرب من النثر الشعرى او الشعر النثري يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما اليهما في اسلوب فني مصنوع لا احسبه مما يطرب الناشئين من قراء العربية في هذه الايام الا ان يقراءه على انه زاد من اللغة وزخر من التعبير الجميل ومادة لتوليد المعاني وتشقيق الكلام في لفظ جزل واسلوب بليغ. ومن هذا الكتاب كانت اول التهمة للرافعي بالغموض والابهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ومنه كان اول زادي وزاد فريق كبير من القراء الذين نشئوا على غرار في الادب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم[4] ...»

---

(١) حديث القمر وجه ١٠٢

(٢) حديث القمر وجه ٤٣

(٣) حديث القمر وجه ١٤٧

(٤) سعيد العريان في حياة الرافعي وجه ٥٨ .

كتـــــاب المســـاكيـــــن

ركن من اهم اركان العمارة الرافعية يطل به علينا من علو محرابه الخيالي وشاهق مأذنته الروحية ببصيرة نفاذة الى اقصى ابعاد النفس البشرية كأن عينيه الباطنية مسبر حاذق يقيس به اغوار قلب الانسان المتلاطمة امواجه، ويهبط به الى اعاميق طوية القلب ليدرك المدى الذي تشطح النفس اليه في سحيق خلجاتها وثباتها. كتاب انما ضم بين دفتيه اراء وجدانية في الدين والعلم والايمان والقدر والفقر والحظ والحب والجمال والحرب والشك والضمير والنظام الاجتماعي. ومن هنا كونه قدّمن اصول النفس البشرية ~~ومن الحياة خطوطه الرئيسية~~. والرافعي يرسل اراءه هذه وعظا الى الناس وهو لا يوجهها الى الاغنياء بمقدار ما يوجهها الى الفقراء في الحياة والمساكين بالروح، ولا يخاطب الماديين بها والمنطقيين ولكنها للمؤمنين بالقلب والمدركين بالروح. هي خفقات خواطر ونوازع نفس لا يضعها الا لاخوان المساكين، لذلك قال في صدر الكتاب (هذا كتاب المساكين فمن لم يكن مسكينا لا يقرأه لانه لا يفهمه ومن كان مسكينا فحسبي به قارئا والسلام) وقد استهل كتابه بكلمة لمحمد يقول فيها (اللهم احيني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين، ان رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين) ثم علق على هذا الدعاء بقوله (ذلك لانهم مادة الاخلاق والعواطف فهم في الانسانية كالجيش يقذف به في المهالك لانه وحده مادة النصر وعلى هذا فمن رحمة الله بالناس انهم في الناس ....)

في الكتاب مواضيع شتى يرسم فيها الرافعي منثورة آلام الانسانية العاثرة واوجاعها الاجتماعية، وهو بذلك مفكك الاجزاء لا تترابط في حلقاته ولا تقوم عمارته بنيانا متماسكا. غير ان هذا التبعثر ظاهري صرف حسب ما اراه، لان الكتاب يرتكز في ضمنه على وحدة باطنية ينطلق الكاتب منها واليها يرجع في كل جولاته المتنوعة. فمن انة الموجوع وحرقة الولهان ودمعة الجائع وصرخة اللهفان وشطحة الصوفي وشك العالم ويندفع والى الانسان كانسان يرجع في رحلاته الوجدانية. تلك سياحات ينطلق فيها من صميم القلب البشرى ليعود بها الى نقطة واحدة هي المسكنة الروحية اخلد ما في الانسان وابد. قال (وضعت هذا الكتاب من احدى عشرة سنة ولو استوى له احد عشر قرنا ثم كتبت له مقدمة لكان هو هو كما اصفه اليوم، كتاب ليس له قبل وليس له بعد، فهو دائر مع النهار والليل على معنى آخره في الانسانية اوله. معنى انا قلت فيه انه يجيء مع كل مولود فقد قلت انه لا يموت مع احد من الموتى[1] ... هو رمز

(1) كتاب المساكين ص ٤

في كل دهر لثبات الجوهر الانساني على تحول الازمنة في اشكالها المختلفة؛ ومن ثم تعيش مع الانسانية معاني هذا الكتاب فهو من روحها صورة وحلية وجاذبية؛ ومن عجيب الحكمة انه ما من نبي اوحكيم او شاعر يترجم الى لسان الحياة ما هو اسمى من الحياة الا أحمد تلك من مساكين الحياة خاصها. هم ابنا السحابة المحتوية المُخيلة لمطر العواطف على جدب الروح الانسانية في الارض والعلم لذلك يتراكمون في الحياة من سواد كالغمائم، ويتشققون من نار كالبروق، ويجفجفون برعود يئنون فيها، ويتبجسون بمطر يبكون به[١]) ...

وضع الرافعي جميع هذه المواعظ الاصلاحية في الحياة على لسان شيخ اتخذه بطلا له اسماه الشيخ علي، وهو رجل يعيش بظاهره في هذه الحياة مسكينا ويعيش بروحه فيما وراء الطبيعة مثريا. وقد طبع الرافعي في نهجه هذا على غرار اعاظم المفكرين في العالم الذين يأبون ارسال افكارهم الوجدانية الا على الألسنة الابطال يتخيلونهم او يكونون قد وجدوا في دائرة الواقع فيتخذونهم ابواقا ينفخون بها لوامع ارواحهم وبوارق افكارهم. اما فعل افلاطون مثل هذا باتخاذه سقراط بطلا له في محاوراته ...

(واول امر الرافعي في تاليفه كتاب المساكين انه كان في زيارة اصهاره في (منية جناح) فلقي هناك الشيخ علي، وا لشيخ علي هذا رجل يعيش وحده ليس له جيب يمسك درهما، ولا جسد يمسك ثوبا ولا دار تؤويه، ولا حقل يغل عليه؛ يجوع فيهبط على اول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث ادركه النوم من الدار او الطريق. رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس وآمال الحياة. ولقيه الرافعي واستمع الى خبره، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي الفيلسوف الصامت في الرافعي الاديب، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه احد بكلمة)[٢] غير ان الشيخ على لم يكن الدافع الاوحد لوضع هذا السفر النفيس في معنى الحياة. فهو زبدة اعوام طوال تمخضت بها روحه مما شاهده من اهوال سنوات الحرب، وقد فطر الرافعي على رقة القلب ولين في الاحساس فتنفعل نفسه حالا بما ينعكس على صفحتها من مشاهد الالم والبؤس. فهناك قحط وجوع وهناك غلاء ويبس وهناك القنابل والقذائف وهناك التيتم والتفجع وهناك لوحات تمزق الاحشاء وترد البصر حسيرا كيفما يمم الانسان وجهه. كل تلك لقح الرافعي بهموم المساكين الى ان حان الوقت واقترب الميعاد والتقى بالشيخ علي، فوضعت حينذاك روحه ما حبلت به على لسان هذا الفقير بمثل هذه الطريقة ...

هذا كتاب المساكين الذى قال فيه احمد زكي باشا (لقد جعلت لنا شكسبير كما للانكليز شكسبير وهيجو كما للفرنسيين هيجو وغوته كما للالمان غوته)[٣]

---

(١) كتاب المساكين وجه ٤

(٢) سعيد العريان حياة الرافعي وجه ٦٢

(٣) الرسالة عدد ٢٠٢ في ٢٤ مايو سنة ١٩٣٧ السنة الخامسة وجه ٨٦٤

رســـائــــل الاحـــــزان

= :: = :: = :: = :: = :: = :: = :: = :: = :: =

اربع عشرة رسالة كتبها الرافعي في كانون الثاني سنة ١٩٢٤ وفرغ منها مساء ١٧ شباط ١٩٢٤ على حد قول الاستاذ سعيد العريان. وقد زعم الرافعي بانها رسائل صديق بعثها اليه وهو يتحدث عنه بقوله (كان لي صديق خلطته بنفسي زمنا طويلا وكنت اعرفه معرفة الرأي كانه شيء في عقلي ومعرفة القلب كانه شيء في دمي . ثم وقع فيما شاء الله من امور دنياه حتى نسيني وطار على وجهه حتى غاب عن بصري، والتفت عليه مذاهبه فما يقع الي من ناحيته خبر؛ وامتد بيني وبينه حول كامل خلا من شخصه وامتلأ من الفكر فيه، كانه العامل الاول من تاريخ حفرة بين القبور العزيزة التي لا تنسى وطلعت الشمس يوما في غيم يناير من سنة ١٩٢٤ فاحسست قلبي من الذعر كالطائر ينفض ندى جناحيه في اشعتها ولم تكد ترتفع وتتلالاء حتى وافى البريد يحمل الي خطه ....) وقد سلك الرافعي في هذه الرسائل نهجا مجردا عن ضمير المتكلم ملتجا دائما الى ضمير الغائب (هو) مشيرا الى صديقه بمثل قوله (هدمت الاقدار هذا الصديق حتى انحط كل ما فيه من العزم والقوة فجاءت (هي) تبنيه وتشد منه وترمم بعض نواحيه المتداعية وتقيمه بسحرها بناء جديدا وتحفت به عنايتها زمنا حتى صلح على ذلك شيئا فايسرت روحه من فقرها الى الجمال والحب .

ويقول صديقي " انه ليس على الارض من يشعر كيف ولدته امه ولكني رايت بنفسي كيف ولدت تلك الحبيبة نفسي؛ مرت بيديها على اركاني المتهدمة واعانتها الاقدار على اقامتي وبنائي، غير أن هذه الاقدار لم تدعها تبنيني الا لتعود هي نفسها بعد ذلك فتهدمني مرة اخرى "(١) اما هذه الرسائل فهي مفعمة بالاحزان كما يدل عليها العنوان وقد قال فيها الرافعي ("هي رسائل الاحزان لا لانها من الحزن جاءت ولكن لانها الى الحزن انتهت ثم لانها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حربا ثم لان التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيا الى قبر ليس بيني وبين الهوى شأن ولا عداوة ولكنها تركت في ثلاث : قلب اخلص لها واخرته عليها وبقايا الام كانها اشلاء من فريسة تشير الى تاريخ من

(١) رسائل الاحزان ص ١٤

الموت والالم والتمزيق، وتركت مع هدين اسمها الذى احفظها فيه بجملتها، وقد يحسم الداء ولكن اسمه يبقى داء ما بقي ...)[1] ويظهر ان الرافعي كان قد شفي من داء الحب يوم كتب رسائل الاحزان واستعاد وعيه الكامل واستكنت نفسه فما اراها غير ذكرى لمرحلة صاخبة عبرت فيها روحه. وذلك ظاهر من قوله (ان كل ما سطرت في هذه الرسائل قد انعقد همه وسواده فكان عجاجة ثائرة من حرب الهوى ليس تحتها في حومة القلب الا الم كضربة سيف او طعنة رمح اوكية رصاصة ملتهبة حمراء. احتلت نفسي عفا كانت فيه من الغيظ والموجدة ونافعتها وغالبتها حتى وقفت بها على صراط النسيان ولكني في ذلك انما كنت كناقش الشوكة بالشوكة يعالج وخزة واحدة بوخزات كثيرة ويكشف عن حمة العقرب النباتية بحمة مثلها وما زلت انكت بسن هذا القلم في صميم هذا القلب حتى فاض في صفحات هذا الكتاب..)[2] في هذا الكتاب جولات بعيدة ببيانها الرفيع وجوانب وجدانية عميقة الغور يرينا فيها الرافعي الحب من شرفات عالية. فهي والحق يقال نظرات فلسفية في عاطفة قلب تجاه قلب يحبه. وقد كشف لنا فيها عن الكثير من اسراره النفسانية، فهي من هذا القبيل خير دليل نستنيد اليه لمعرفة اهم الوان شخصيته الباطنية. بها يرفع لنا الستار تلو الستار بوحًا عما تجيش به نفسه من رحمة وحنان وعطف وحب وبغض وحقد ايضا. فهي بمثابة اعترافات صادقة على لسان صديقه هو الرافعي عينه قال عن هذا الصاحب الخيالي (ومما لا اكاد افهمه انه يكتب كتابة محب احياه الحب ومبغض قتله البغض فاني لاعلم ان كل شيء حبيب ممن نحبه حتى البغض اذا كان يدل على حبه وله دلالة خفية. بيد ان صاحبي يجفو جفاء شديدا فلعلها انفة غلبت بها النفس على القلب فحولت الحب الى جفاء والجفاء الى غيظ والغيظ الى مقت وانما المقت اول البغض واخره)[3] (ساكتب اشياء واضمر على اخرى لا ابوح بها، وما ثم لكل امرئ باطن لا يشركه فيه الا الغيب وحده ففي كل انسان تعرفه انسان لا تعرفه ... فانا وحدي اعرف سبب الزلزلة التي اصفها والناس بعد كاولئك الخياليين القدماء الذين كانوا يقولون متى اهتزت اثقال الارض ان اله المصارعة ينبض قلبه الان"...

انا وحدى اعرف ما اندنج عليه وما يكنه قلبي المتالم الذى اصبح يضطرب اضطراب الورقة اليابسة في شجرتها نافرة تتطلع ان عفت عنها نسمة لا تعفو النسمات كلها. فستأتيك في رسائلي بالكلام الصحيح والكلام المريض ويتشعب عليك من خبري امور وامور، فلا تحاول ان تهتك سر هذا القلب)[4] اليست المهجة هذه هي لهجة من يعترف بما تكنه نفسه في مصون طويتها من حب وهيام.

(١) رسائل الاحزان ص ١٩
(٢) " " " ١٧٢
(٣) " " " ١٥

ونمت في رسائل الاحزان كما في كتب الرافعي كلها خواطر فلسفية في الحياة والقدر والعقل.

والقارئ يقع خيرا على تحديد للشعر جميل للغاية يقول فيه ما يلي - (الشعر وراء النفس والنفس وراء الطبيعة والطبيعة من وراء الغيب. فلو جمعت ما قيل في الشعر لرايته يصلح في اكثر معانيه ان يقال في النفس ثم لرايته مفهوما من جهتنا وغير مفهوم من جهة. وما الشعر الا اول المعاني المبهمة والدرجة الاولى من سلم السماء الذاهبة الى عرش الله. وهو كذلك اول ما في الانسان من الانسانية ...)[1] يقول الاستاذ سعيد العريان (لقد كان حب الرافعي الاخير حادثة في ايامه فعاد حديثا في فكره. ورسائل الاحزان هي اول ما انشأ من وحي هذا الحب، على ان قارئه يقرؤه فما يعرف اهو رسالة عشق الحي عليه الحب، ام زفرة مبغض يتلذع بالبغض قلبه. والحق ان الرافعي انشأه وهو من الحب في غمرة بلغت به من الغيظ والحنق ان يتخيل انه قادر على ان يبغض من كان يحب بغضا يرد عليه كبرياؤه وينتقم له. فما فعل الا ان اعلن حبه في اسلوب صارخ عنيف كما تحنو الام على وليدها في عنفوان الحب تنفضه وانها لا تريد ان تقبله، او كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عنف وما بها الا الترفق والحنان....)[2]

(١) رسائل الاحزان وجه ٩٥

(٢) سعيد العريان في حياة الرافعي وجه ١٠٦

اوراق الـــــــــــورد

هي طائفة من الاراء في الحب والجمال نثرها الرافعي واتم كتابتها سنة ١٩٣١ كما يقول الاستاذ سعيد العريان ،وهي رسائل تطارحها الشاعر فيلسوف روحاني وشاعرة فيلسوفة روحانية كلاهما يحب صاحبه كما يقول الفيلسوف ابن سينا باعتبار عقلي ... وقد جرت الرسائل بينهما على اغراضها في احوال مختلفة ؛ يكتب اليها بما عنده منها وما عند نفسه من نفسه وما يكون من الوجود المحصور بينهما في حدود الحب (١)...

تلك رسائل لم ترسل الى الحبيبة مع البريد ، ولكنها نجوى من القلب الى القلب ، يخاطبها فيها بالمكاشفة الباطنية والاحلام ، ويصف بها حالة في نفسه ، ويثبت تاريخا من وجوده العاطفي .

وهي ليست وليدة قلب متيم فقط او خيال في وهج الحنين ، ولا هي من رعشات فواد جاشت عواطفه ، واشتعلت مشاعله فحسب ، بل فيها من الجولات الفكرية الواعية وقدح زناد العقل الثاقب النافذ الى دخلة الامور ما يرينا الكاتب رغم فوارة قلبه وصخب شعوره في هداة من الادراك وسكينة فكرية في (اوراق الورد) عقل الاديب لا قلبه فقط ، وفيها بيان الفنان ايضا .

يبدأ الرافعي (اوراق الورد) بمقدمة بليغة عن الادب العشقي ، يحيط فيها بتاريخ الرسائل في الحب احاطة يطلعنا بها على سعة معلوماته من احوال الاقدمين ، وعلى طول باعه في اخبارهم ونوادرهم ، فيعدد فيها مشاهير العشاق كمجنون بني عامر وصاحبته ليلى ، وتوبة وليلى الاخيلية ، وكثير وعزة ، وجميل وبثينه ، وعروة وعفراء الى ما هنالك من ابطال عرفهم التاريخ في ميدان الحب . ثم يذكر اسماء المشهورين من شعراء الغزل والشاعرات المتظرفات الجميلات الموقوفات على الحب امثال : جنان صاحبة ابي نواس ، وفضل الشاعرة جارية المتوكل . ومن ثم ينتقل الى ذكر المؤلفات الفريدة في ادابنا العربية التي يقوم مدارها على الحب ومعانيه واهله واخبارهم ونوادرهم واشعارهم ككتاب الزهرة الذي الفه الامام محمد بن داود الظاهرى فقيه اهل العراق ، وكتاب مصارع العشاق الذى وضعه ابو بكر البغدادي السراج ورسالة الجاحظ في العشق والنساء ... الخ غير ان الرافعي لم يرَ في تاريخ اداب العربية مَن أحسَن كتابة الرسائل العشقية وابدع في تدبيجها (لان الكتابة في معاني الحب لا تحتمل الصنعة والفصول وصناعة الالفاظ والترادف بالكثير منها على القليل من المعاني ؛ ويسمج فيها خاصة ما تراه يحسن في غيرها من فنون الكتابة كالتوسع بالنقل والرواية وتشقيق الكلام بما يلابس كل معنى والطغيان في العبارة بذلك وما اليه وكل شيء فهو يصلح مادة للكتابة الا في هذا الفن من رسائل الحب . فان مادته القلب والروح وفلسفة العواطف وترادف وحي الجمال بالمعاني الكثيرة على الشعور الواحد لا وحي اللغة بالالفاظ الكثيرة على المعنى الواحد (٢)..

(١) اوراق الورد وجه ٢

(٢) اوراق الورد وجه ٩

وينتقل بعد ذلك الى القول (فانت ترى ان الادب العربي قد انطوى على محجوبة من هذا الفن بقيت في الغيب الى عهدنا هذا ونرجو من فضل الله ان تكون كتبنا الثلاثة قد اظهرتها[1] واستعلنت بها. وان تقول العربية اذا تواصفوا كتب هذا الباب في بيان اللغة الاخرى لاهلها ثم اقروا كتابيه»)[2] ثم يبسط الرافعي في مقدمة صغيرة بعد هذا المدخل في تاريخ الحب السبب الذي من اجله اسمى الكتابة (باوراق الورد) قال (هذا كتاب اوراق الورد فحدثني من حدث في سبب هذه التسمية قال «كانت معها ذات يوم وردة لا ادري ايهما تستثني الاخرى فجعلت لها ساعة من حقاوتها تلسمها مرة صدرها ومرة شفتيها والوردة بين ذلك كانما تنمو في شعاع وندى اذ رايتها وقد تفتحت وتهدلت حتى لحسبت انها قد حالت اوراقها شفاها ظمآى ثم تاملتها شيئا ثم نحت الى بصرها وقالت ما ارى هذا الحب الا كورق الوردة في حياته ورقته وعطره وجماله ~~ولا اوراق الورد~~ ولا اوراق الوردة الا مثله في انتثارها على اصابع من يمسها اذا جاوز في مسها حدا بعينه من الوفق ثم في تفترها على الحاج من يتناولها اذا تابع الحاحه عليها ولو بالتنهد ثم في بنائه عقدها على ان تتحلل او تذوى ان لم يمسكها مع بنائه الرقيق حذر من تكون في يده ... لانها على بيئته فن لا وردة. ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها على عروة صاحبها فقال لها وضعتها رقيقة نادية في صدري ولكن على معان في القلب كاشواكها ... فاستضحكت وقالت فاذا كتبت يوما معاني الاشواق فسمها اوراق الورد وكذلك سماها)[3]

(١) يشير هنا الى كتابيه السابقين: رسائل الاحزان، والسحاب الاحمر.

(٢) اوراق الورد وجه ١٨

(٣) اوراق الورد وجه ١٩

السحـــــــــاب الاحمـــــــــر

كتاب يدور معظمه حول المراة في حبها وبغضها ولوءمها. ولا شك بان الرافعي كان في حالة عصبية جياشة حين استقطر كلمات هذا السحاب كما يصف ذلك نفسه بقوله ((ويقد اتوحيته من ارواح فيها الحبيب والبغيض والصديق؛ والمظلوم والظالم لنفسه، ومن عقله قلبه، ومن حبه منفعته؛ وفيها اضعف ما عرفت من العقول واقواها؛ فمن هذه السماء توكفت هذا السحاب؛ واني لاشهد اني في بعض فصوله كنت احامي عن الحب ان ينتقص،فاديرالكلام على ذلك فيلتوى، ثم اراه لا ينقاد ولا يتابع الا على خلاف ما اريد؛ فاذا اخذت في المذهب الذى يعن لي اتفاقا وعرضا تحدر الكلام تحدر الدمع من حيث لا يملك احد ان يفيضه او يكفه؛ لانه عند اسبابه الباطنة ...))[1] واكثر الكتاب غيظ وحنق وسخرية بالمراة قال ((قال بعضهم للزاهد عظيم اني رايتك الليله تمشي في الجنة فقال له الزاهد ويحك اما وجد الشيطان احدا يسخر منه غيرى وغيرك.وقال رجل لامراة اني رأتيك الليلة في الجنة فقالت له = ويحك تقولها من غير ان تشكر فضلي عليك مع اني ادخلتك الجنة ...))[2]

ومن اجمل وصفه جولاته الوصفية عن للحب ما تحدث به عن حب الام في قصة والدة اضاعت ولديها الصغيرين ثم اهتدت بعد ذلك اليهما قال ((الحب ما الحب الا لهفة تهدر هديرا في الدم وما خلقت لهفة الحب اول ما خلقت الا في قلب الام على طفلها ترأمه وتحنو عليه ولن يحفظها للعالم الا هذا القلب نفسه. ولقد يكون عمر الطفل يومين ولكن لهفة امه عليه وحفظها اياه حفظ عينيها تجعل له من الحب عمرا متطاولا يقاوم به الاقدار العادية عليه في مسارحها ولو لا ذلك لحطمته هذه الاقدار كما تحطم كل طفل اهمله ذوو عنايته. فلهفة الام على طفلها كانها قوة سنين عددا في جسم الطفل؛ ومن ثم لم يكن الحب الصحيح في اسمى مظاهره الا حب المراة لبني بطنها ...))[2] وفي الكتاب فصول ثلاثة هي سير نفسية لشيخ الشيخ علي والشيخ احمد والشيخ محمد عبدو.وقد نهج فيها نهجا روحانيا.فهو انا ارخ حياة انسان لا يوءرخ منه الحوادث الخارجية وانما يتتبع تموجات روحه ولا يرسم غير خطوط نفسه من الداخل بمثل وصفه للشيخ عبده ((لست ادري على اى روح نبت هذا الرجل ولكن الذى

---

(١) السحاب الاحمر ص ١٤

(٢) ...

اعرفه انه حين اثمر فنضج فحلا اذاق الناس من ثمره طعم معجزة الفكر العربي ...

كان منطويا على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها في عينيه وينتشر على ما حوله فلا يشعر من يجلس اليه انه جالس مع الرجل ولكنه مع النفس العالية التي هي فيه وكان اعظم هيبة من الملوك لان هؤلاء يحيطون انفسهم بالديوان والمواكب والاسلحة وكثير من ضروب التوقير والتعظيم اما الشيخ فكنت تراه حيث رايته كأنه لمحراب حيث يكون لا يقف عنده الا من وقف ليتخشع وما نكرته الا ذكرت قول القائل في هذه الصورة الآدمية آدم والملائكة له ساجدون[1] ...)

قال الاستاذ سعيد العريان (السحاب الاحمر كتاب كامل احذف منه فصلا او فصلين في اوله وشيئا من فضول القول في سائره تجد فنا في العربية لا يقدر عليه الا الرافعي . فجرده من قصته او انسبه اليها فانك واجد فيه ادبا يستحق الخلود وبيانا يزهى على البيان، وشعرا وحكمة ما زال الادباء يدورون عليها حتى وجدوها في ادب الرافعي[2] ...)

---

(١) السحاب الاحمر ص ١٢٦

(٢) حياة الرافعي ص ١١٤

وحـــــي القلـــــم

مجموعة المقالات نشرت في الرسالة بين سنتي ١٩٣٤-٣٧ وقد قال عنها الاستاذ عبد الوهاب عزام بعد ما جمعت ونشرت في اجزاء ثلاثة (هذا وصف الروض في كلمات لو كانت ازهارا ما مثلته، ونعت البحر في سطور لو كانت امواجا ما صورته. فاما الروض في بهجة جماله، والبحر في روعة اجلاله فهما ما خط الرافعي فان شئت فقل جنات في صفحات وعباب في كتاب وان شئت فقل انه العالم في سطور قد انتظم ووحي الهي سماه الرافعي وحي القلم[1] ..).

يمثل لنا وحي القلم الرافعي الاديب في طوره الثاني من حياته الانشائية، وقد كان قبلا يكتب دون ان يبالي بمقدرة الشعب الاستيعابية وذوقه. لذلك غمض في اكثر ما انشأ وانبهم على الناس فقالوا عن ادبه ادب رجعي ولم يكد يلتحق بمجلة (الرسالة) حتى شعر ما عليه من مسؤولية يجب ان يقوم بها نحو الشعب. وذلك لا يكون الا اذا مالق بعض الشيء ميول الناس بايضاح معانيه واجلاء عبارته الامر الذي دفع الرافعي الى توخي النقاء والصفاء. غير انه لم يفقد شيئا من روعة ادبه بل زاده ومزية مستحبة، وتنحى عن السجع الا في القليل من المواقف. واخذ بعد ذلك يعايش الشعب ويتالم اوجاعه ويعيش حياته ليكتب له ويستوحي منه. فكانت مقالاته اية من ايات الجمال في الادب العربي سوف تبقى خالدة ممتازة لا يدركها غير الخاصة رغم سهولتها وجزالتها. ومن هنا قول الاستاذ عزام ايضا في المقال ذاته نائما (انا معجب بالرافعي منذ قرأت له واحذر ان يطغي الاعجاب على بصيرتي وتكل عين الرضى عن العيوب، وقد اتهمت نفسي، ولتكافى التهمة الاعجاب، ويعادل الحب الارتياب ...)

اكثر تلك المقالات ذات طابع قصصي ولكنها قصص دينية تاريخية مقتبسة من حياة مشاهير الرجال عند العرب، وهي تدور في معظمهـــا حول فلسفة الحياة المتجسمة في محمد وتباعه. غير ان هذه المقالات نقد في قليلها جابه الرافعي فيها شعر الكثيرين من الذين عاصروه امثال شوقي وحافظ وصبرى ومحمد طه، فظهر فيها مقدرة على النقد فائقة. ~~على استنباط جمال الاديب ومعايب المتأدبين~~ وثمت ايضا نوع من المقالات شرع فيها الرافعي قوانين الادب الصحيح والشعر الصحيح فكان بذلك مشرعا يسن القواعد التي يجب على كل اديب ان يسرى على ما تقوله ليخلد في ادبه وشعره. وقد صدر هذه المجموعة، يوم عزم على نشرها، بمقالة هي ياقوتة فريدة في ادبنا العربي اسماها (البيان) ... قالت (الرسالة) عن هذا الكتاب (الاستاذ الرافعي من افذاذ الالسنة البيانية في الادب العربي كله قديمه وحديثه. وقد استقام قلمه على طريقة من البيان انفرد بها فعرفت به وعرف بها. وهذا الكتاب قد اجتمعت فيه روح الرافعي الفلسفية وروحه البيانية وتعاونا على بناء الفن العربي بناء جديدا فيه الروعة والمتانة والتسامي والجمال كل بديع، وكل اديب عربي يحتفل بهذا الكتاب احتفالا خاصا لانه قطعة من النفس العربية المتصلة بالماضي والحاضر والمستقبل ويهتز له لانه تعبير فني دقيق عن المعاني الغامضة التي لبثت قرونا لا تجد من يبين عنها ابانة الـــرافعـــي[2])

---

(١) الرسالة عدد ١٨٦ السنة الخامسة ٢٥ يناير ١٩٣٧ وجه ١٥٧

(٢) " " ١٨٥ " ١٨ ...

مركز الرافعي الادبي

ما قرأت بيانا في لغتي استحوذ على مجامع نفسي كالذى قرأته في ادب مصطفى صادق . فقد بلغ مني مبلغا قصيا باسلوبه ، وما زجني بقوة عجيبة نفذت بها من قرارة ذاته الى قرارة ذاتي حتى اصبح عندى دون ريب كاتب البحث في ادبنا الحديث وصاحب القلم المعجز . رايت في ادبه ضربا من البيان المتحدر عن غيبيات النفس وسبحات الروح ، ما جعله في نظرى قريع دهره في الادب الصافي بين كتابنا اليوم، وسمتا فريدا من التبين عن خوالج القلب . وهو لا يذكرك بأحد من افذاذ البيان، ولا احد يذكرك به على الاطلاق « فمذهبه في الكتابة من صنع نفسه ، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق ، اختلطت فيه مذاهب وتداول عليه ادباء وادباء من كتاب العربية الاولين » [1] لم يترسم الرافعي في بيانه اقدام غيره من ادبائنا السالفين، ولم يطبع على غرار سواه من المحدثين، بل كان وحده خلاق المعاني في جوه الخاص يديرها كما يشاء بافكار نبيلة نزلت كلمات كانها النقود الذهبية فوق المرمر . وحياته الادبية شكل فني خاص تعكس ذوقه وحده فلا تمت بصلة الى احد من القدماء ولا الى احد من المعاصرين وبذلك كان طريقة نفسه: « والادب ان كان تقليدا فهو ادب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها وان كان ابداعا . فليس الابداع مدرسة تكون بالتعليم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والالف على طراز لا يختلف » [2] وهكذا اختط الرافعي لنفسه نهجا خاصا في حياته الادبية وشاد البيان العربي صرحا جديدا يفرد به ، فكان عذوبة الضاد . وادبه ادب ممتاز في اكثره ينقشع عن نزوع الى معلاة الفكر ينشلع الرافعي به الى فوق بالارتماء في اغوار الضمير ليصل الى المغرس الالهي في كيان الانسان . واروع ما في ادب الرافعي اداؤه المحكم في معظمه وبيانه المتعالي ، ورمزيته الشفافة . فهو من امهر من فصل الالفاظ على قدود المعاني « سليم من الشوائب الاعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتاخرين ، فكاني وانا اقرؤه من قلم المبرد في استعماله المساواة والباس المعاني الفاظا سابغة مفصلة عليها ، لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى ببعض اجزائها » [3] وكاني بالرافعي يصف انشاءه في احدى رسائله الموجهة الى صديق له مجهول بقوله : « فاني راميك باسهم لا قاصرات عن قلبك تنزل دونه ولا زائدات تمر عليك وتتجاوزه بل مسددات يقعن فيه » [4] ذلك وصف ينطبق على اسلوب الرافعي اتم انطباق ، فهو من اقدر الذين يسكبون المعاني في قوالب الفاظها سبكا محكما لا يزيد ولا ينقص، ويعود ذلك الى معرفته اللغة العربية معرفة بعيدة المدى ادرك فيها حكم الاجتهاد والاستنباط حتى وقف موقف الاستاذ من اربابها الادبيين وائمتها السالفين الخالدين » .. فعظمته ... انما ترجع لاتصاله الوثيق بتراثنا الادبي القديم دون غيره فنهل من شرابه العذب ، وتغذى من خلاصته القوية الصالحة فاذا بها تتمثل في اسلوبه وتتخلغل في ادبه وتهذيبه وتتمازج في تفكيره وتعبيره ، وتندمج في تقديره وتدبيره ، فاستطاع ان يشق للادب القديم التليد سبيله في الادب الحديث العتيد » [5] له اطلاع واسع على مغاليق هذا التراث اللغوى ، فهو طويل الباع في معرفة

(١) حياة الرافعي لسعيد العريان وجه ٥٩

(٢) وحي القلم للرافعي الجزء الثالث وجه ٢٦٢

(٣) كلام الاستاذ احمد لطفي السيد بك عن اسلوب الرافعي . ذكره العريان في كتابه حياة الرافعي وجه ٥٢

(٤) [illegible] للرافعي وجه ٦

دقائق اسراره، لذلك كان يجابه رواته ونقاته كند ذي ثقة عظيمة من نفسه، حتى انه كثيرا ما كان يتعالى عليهم ويفتخر. قال عنه مصطفى كامل في جريدة (اللواء) سنها تي بم اذا ذكر فيه الرافعي قال الناس هو الحكمة العالية مصبوغة في اجمل قالب من البيان[1] وقد كان واثقا من نفسه مؤمنا بالمركز الذي تسنمه في عالم الادب واعيا مقدرته البيانية، لذلك عندما ساله يوما من الايام محرر (الدنيا) عما سيقوله الناس عنه بعد موته قال: «هذه الكلمات من اقوالهم: حجة العرب، مؤيد الدين، حارس لغة القرآن، صدر البيان العربي، الاديب الاسلامي الامام، معجزة الادب الى اخر ما يطرد في هذا النسق وينطوي في هذه الجملة»[2]

هذه شطحة قلمية عجلى عن مركز الرافعي الاديب في نظر بعض معاصريه. واجدني مضطرا في مستهل هذه الدراسة الى التجوال قليلا على الشواطئ الرافعية قبل الولوج الى ارجائها، فآتي قبل كل شيء على بعض ارائه في ماهية الادب والشعر وعلى الشرائع التي سنها للاديب، لاعود بعد ذلك الى ما انتجه هو نفسه من شعر ونثر.

جـولـة حـول نظـريـاتـه في الادب

لا تخلو كتبه في معظمها، ولا سيما وحي القلم واعجاز القرآن، من نظريات جال فيها الرافعي حول الادب الصافي ونواميسه الخالدة. وقد وجدته في محاولاته التعريفية هذه ذلك المشرع المحنك الذي يسن قواعد هي في رايه واجبة الوجود لتحسس الادب الممتاز. فهو يكاد يبرز في هذه التشريعات على اعاظم المتادبين في رقعة اوربا. واول ما تراه في نظرياته تحديده الغاية التي يجب على الاديب ان يستهدفها. وللرافعي في هذه التحاليل بيان رفيع لا يحط مع ذلك من طابع البحث العلمي. ففيه يجسد المفكر بالاديب ويطلعك على سر من اسرار مكانته الرفيعة في نظره.

المجهـول: قال يحدد الادب: «وهذه النفس البشرية الاتية من المجهول في اول حياتها والراجعة اليه اخر حياتها والمسددة في طريقه مدة حياتها لا يمكن ان تتعاطى الوجود فيما بينها وبين خيالها على انه قد فرغ منه فما يبدأ وتم فما يزاد وخلد فما يتحول بل لا تزال تضرب ظنها وتصرف همها في كل ما تراه او يتلجلج في خاطرها فلا تبرح تتلمح في كل وجود غيبا وتشف من الغامض وتزيد في غموضه وتجرى دأبا على مجاريها الخيالية التي توثق صلتها بالمجهول. ومن ثم لا بد في امرها مع الموجود مما لا وجود له تتعلق به وتسكن اليه. وعلى ذلك لا بد في كل شيء مع المعاني التي له في الحقيقة المعاني التي له في الخيال وها هنا موضع الادب والبيان في طبيعة النفس البشرية»[3]

(١) الرسالة عدد ٢٠٢ في ٢٤ مايو سنة ١٩٢٧ السنة الخامسة وجه ٨٦٤

(٢) " " " " " " " ٨٦٢

(٣) في وحي القلم الجزء الثالث وجه ٢٤٦

هكذا حدد الرافعي غاية الادب، وهي تقوم على ان يوجه كل اديب واعيته الباطنية نحو غيب كل وجود والاتصال بمجهوله . وهذا المجهول هو عالم ما وراء الطبيعة ،عالم الروح والافكار، عالم البقاء والكائن خلق الفناء . المجهول منذ قديم الزمان محط انظار الشعراء الخالدين ،والعلماء البارعين، والادباء الماهرين . فما خلد كاتب الا وقد طرق بابه ، ولا تأبد شاعر الا وقد حطم قيثارته على عتبته السحرية، كأن في عنق الانسان رغبة سليقية للتفكر بابعاد هذا الكون، واستنطاق مصون الالغاز . ذلك لان حقل الاختبار البشري الذي يتوافر فيه الدليل العلمي انما هو حقل ضيق بحدوده، والانسان جموح بشطحاته الذهنية ، شغوف بتمزيق الحجب المرئية والتفات الى ما هو كائن خلف الظواهر ، فلا يقف عند حد من الحدود بل يطلب الاستزادة فوق ما يعلم . وهكذا نراه لا يستكن الى يقين حسن ، ولا يركن الى رأي ما عين ، كانه دائم الرغبة للنفوذ الى المجهول وراء المعلوم ،والخفي وراء المنظور، والنفس تندفع باستمرار وراء اللاشيء في كل شيء كي تلتقط اللا وجود من كل وجود وتستعلم عما التف حول المرئي كجو سحري من الخيال . هي دوماً وابداً تسقط المعلوم بوحاً عن مجهوله، فيعمل الفكر بلا هوادة على استنطاق الاسرار كأنه مقضي عليه الا يستقر في غير نفق مكفهر من الغوامض والعقد ليكون على الدوام في اشتياق الى النور القائم في عتمة الغيب. ومن هو العالم الذي يجرؤ على القول بان ما يعلمه هو النهائي في الوجود؟ ومن هو ذلك الرجل الذي يثبت بان هذا الحجر المنطرح على قارعة الطريق قد ادرك في كامله؟ عبثا يتذرعون بنتائج العلم ،فالعلم ذاته موجة علم في يم اللامعلوم . وحيثما اتجهت النفس اصطدمت بظلال من الغيب، وسمعت نداء المجهول كانها في اقتراب دائم من هذا الكامن خلف المعارف، وكانها في الغربة عن دارها يوم تعلم . وما هو الانسان؟ ومن هو في بحر اللا نهائيات؟ وما قيمة كيانه الحقير وسط شاسع الاكوان الحائمة حوله؟ وما هي طاقة اعماله وهو جزئية ضئيلة تتأرجح في فضاء هذا الوجود؟

ان ما نعرفه ذرة معلومة في المجهول العام، لان في كل شيء واضح سراً غامضاً: في الليل سر النهار وفي نهاره سر ليله . في الدمعة سر بسمة الشفتين، وفي البسمة سر دمعة تترقرق في المهد سر اللحد ، وفي اللحد سر مهد لا منظور . في المشرق سر مغرب يبدأ وفي المغرب سر مشرق يلوح . في البداية سر النهاية وفي النهاية سر آت جديد . والحياة كلها اسرار والغاز وليس في الكون كله معلوم لا يكتنفه المجهول. فاينما يممت نظرك استشفيت بواطن رابضة في ثنايا الظواهر . ومهما اتسعت المعارف ففي كل حل يجده العلم الف من الالغاز ، وحول كل وضوح هالة من الغيب هي سر قاتم مكتوم تكل العين عن النظر يجذبه اليه. وما الدين في معناه الواسع بادئ ذي بدء الا تعبير عن هذا الهل الجارف نحو المستتر خلف مسرح الوجود ، هو استنجاد بالاله المجهول . والدين كان ولما يزل ولن يزل ما دام المجهول مجهولا في هذا الكيان

الضيق المعلم »ولو حددت الحقيقة لما بقيت حقيقة، ولو تلبس الملائكة بهذا اللحم والدم لبكلل ان يكونوا ملائكة ... ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى كالايمان، والجمال، والحب والخير والحق ستبقى محتاجة في كل عصر الى كتابة جديدة من اذهان جديدة «(١)

ان المجهول غاية كل اديب يهف الى البقاء وديمة في هيكل الخلود، لانه اسمى ما يطمح الانسان اليه في التامل الذهني . وهكذا يسمو الرافعي بالادب الى درجة التفلسف والدأب وراء الحقيقة الانسانية . وقد طبع هو نفسه على غرار هذا التعريف الذي سنه . فكان في كتبه غواصًا ماهرًا في يم الحياة، لا ترتاح نفسه الى القريب الواضح من المعاني ولا يطمح لغير المجازفة بعيدا وراء الوهميات المعقدة . فهو من هذا القبيل يعشق المصاعب ويركب متن المخاطر لاصطياد الحقائق الازلية . لذلك تراه يرمي بالادب الى ابعد المعاقل المغلقة، ويدفع به الى ظلمات المجهول واعتكار الغيب . ومن هنا كان غموضه احيانا . فهو »يحمل الفكرة في ذهنه اياما يعاودها في خلالها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل حتى تتشعب في خياله وتتكاثر في خاطره، ويكون هو لكثرة النظر والاجالة قد سما في فهمها على الذكاء المالوف . فاذا اراد ان يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ جلاها على الوضع الماثل في ذهنه واداها بالايجاز الغالب على فنه فتاتي في بعض المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها واضحة في نفسه وضوحها في نفسه . وذلك عيب المروين من صاغة الكلام وراضة الحكمة كابن المقفع والمتنبي وسكال وبول فاليري . ومنشاء ذلك العيب فيهم انهم يطيلون النظر ويديمون الفكرة ويعمقون البحث حتى تنقطع الصلة بين عقولهم وعقل القارئ . وتتسع المسافة بين معانيهم والفاظ اللغة فيكتبون وافهامهم سابقة سبوق الريح واقلامهم متخلفة تخلف الجسم . ويزيد في هذا الغموض ان سمة الثقل في النوابغ تستلزم ضيق اللسان فلا ترى الفضول والثرثرة والرغوة والغثاء الا حيث يضحل الذهن ويقصر النظر وتنزر المادة . والرافعي كان يقتصد في اسلوبه لانه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه ما يجعله اشبه بومضات الروح ونبضات القلب ونفحات العافية «(٢)

كان الرافعي شغوفا بالوقوف امام المجهول . فهو يتساءل بالحاح عن مشاكل الوجود، وادبه مفعم بهذه الصرخات الموجعة التي يصعدها الانسان من اقصى ضميره لادراك ما يختبئ خلف الستار المبهم . فها هو يقول »سبحانك يا من لا يقال لغيره سبحانك . خلقت الانسان سؤالا عن نفسه، وخلقت نفسه سؤالا عنه، وخلقت الاثنين سؤالا عنك . وما دام هذا الانسان لا يحيط به الا المجهول فلا يحيط من كل جهة الا سؤال من الاسئلة . ولا عجب اذن ان يكون له من بعض المسائل جواب عن بعضها . هذه هي الطريقة المبهمة في دقائق الامور، تجيب الانسان الضعيف عن سؤال بسؤال اخر«(٣) وقال ايضا »ان شيئين هما اروع ما تعرف، وما تجهل احدهما ذلك المجهول الاعظم المختبئ وراء العقل يتراءى ثغرا في ثغر الى ما

(١) الرافعي: وحي القلم الجزء الاول وجه ٧ .
(٢) كلام احمد حسن الزيات . الرسالة عدد ٢٥٢ في ٩ مايو سنة ١٩٣٨ وجه ٧٦٢
(٣) [illegible] ٩٢

لا تعقل من اسرار اللا نهاية والثاني ذلك المعروف الاعظم المختبئ وراء القلب يتعقد صفة في صفة الى ما لا تدرك من اسرار النفس»[١]

ان الالتفات الى المجهول بوجع بحز في الاعماق ثم الرجوع من لدنه صفر اليدين ميزة كل اديب خالد. به يسمو الانسان الخاص الى انسانه العلم ويعلو بذاته الشاطئة فوق ذاته الخاصة ويهز المجتمع الانساني هزا عنيفا بدموعه والامه. فكل رائعة فنية لا تقيم القيامة في داخلها حول هذا الاله الملثم، ولا ترمينا في بحره الرجاف تكون لحدها في المهد . وادب الرافعي في معظمه تشوف الى هذا اللاشئ في كل شئ وخلف كل شئ، فتحس به انه يقف بك على الذروات النافذة الى ما وراء الغيم وانه يهبط بك في الاعاميق خلف المهاوي ويشطح بك الى ما وراء قطبي الولادة والموت يسبح بين اللامتناهيات يبعد في المرمى وتسلم في المصعد، كانه لا ينزع لغير سني المواتب وخطير المساعي وسحيق المدارك. ففي قلب الانسان اغوار وسماو تقابلها مصاعد ومرتفعات، وبين الرافعي نفاذة بلا ملل الى كل هذه الابعاد ليدرك اللا مدرك . لذلك ابهم على الكثيرين «فهو اديب الخاصة كان ينشئ انشاءه في اى فروع الادب ليضيف ثروة جديدة الى اللغة تعلو بها وتعز مكانا بين اللغات؛ وشبابنا - اصلحهم الله - لا يعرفون الادب الا ملهاة وتسلية، ولا ينشدونه للذة العقلية وسمو النفس ولكن ينشدونه لمقاومة الملل وازجاء الفراغ ...

لم يكتب الرافعي الكتابة التي نشتهيها اكثر كتابنا ليتملقوا غرائز القراء بالعبارة المتهافتة والقول المكشوف. عند المتادبين من ناشئة اليوم ان قيمة الادب هي بمقدار انطباقه على اهواء النفس وارتياحها اليه وقدرتها على ان تسيغه الا بلا كلف ولا عناء»[٢] وقد قال الرافعي ذاته في هذا الصدد ما يلي «واللذة بالادب غير التلهي به واتخاذه للعبث والبطالة فيجئ موضوعا على ذلك فيخرج الى ان يكون ملهاة وسخفا وفضيحة؛ فان اللذة به اتية من جمال اسلوبه وبلاغة معانيه وتناوله الكون والحياة بالاساليب الشعرية التي في النفس، وهي الاصل في جمال الاسلوب؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ماركب في طبيعة الحي، اذ يحس الذوق لذة الطعام مثلا على ان يكون من فعلها الطبيعي استمراء التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها؛ اما التلهي فيجئ من سخف الادب وفراغ معانيه ومواتاته الشهوات الخسيسة والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة، وذلك حين لا يكون ادب الشعب ولا الانسانية بل ادب فئة بعينها واحوالها؛ فان اديب صناعته او اديب جماعته، غير اديب قومه واديب عصره: احدهما الى حد محدود من الحياة والآخر عمل جامع مستمر متفنن؛ لان عمله الادبي هو وجوده، وكل شئ في قوله لا يبرح يقول له: اكتب ...»[٣]

كثيرا ما ننفر من الادب الذي يضطرنا الى التفكير العميق. فما نرغبه هو الوضوح التام والسهولة لاننا لم نتعود بعد على ان نساهم مع الاديب في خلق المعاني البعيدة والارتفاع الى الطباق العليا من الخيال. فاذا افصحت الكلمة بوضوح تام عما تريد ان تقوله، لا عما تعذر عليها قوله، استسغنا الادب والا حططنا رحالنا عند الفاظه. وادباؤنا ايضا لا يجرؤن على الولوج تحت سقف المشاكل الابدية، فلا

(١) اوراق الورد وجه ٢١٧
(٢) وحي القلم الجزء الثالث وجه ٢٠٥

يعبرون الى المنطقة الباطنية حيث تتاجج حروب المبهمات ويستعر النزاع بين الرغبات المتصارعة والاماني المتضاربة، ولم يغوا من الحياة مراميها الشريفة لانهم يسترهبون الغوص في تلك الاعماق المدلهمة المدبرة والبواطن المعتمة «ولا اعرف ادبا مقيدا مسرفا في التحرج غاليا في الاحتياط كادبنا العربي الحديث الذى يغشه أصحابه وهم يفكرون في الناس اكثر مما يفكرون في انفسهم حتى اطمعوا الناس فيهم واصبحوا عبيدا للجماعة وخدما للقراء»[1]

لقد كره الرافعي كثيرا واسيء فهمه[2] وما ذلك حسب اعتقادي الا لان ادبه ادب الخاصة لا العامة، ادب الروح والاسرار، ادب البعيد في الاقصى. ادب حاول فيه ان يثير هذا الغيب المبهم حول القارئ.

لان «الغرض الاول للادب المبين ان يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها الى المجهول والى مجاز الحقيقة. وان يلقي الاسرار في الامور المكشوفة بما يتخيل فيها ويرد القليل من الحياة كثيرا وافيا بما يضاعف من معانيه ويترك الماضي منها ثابتا قارا بما يخلد من وصفه، ونجعله المؤلم منها لذا خفيفا بما يبعث فيه من العواطف، والمملول ممتعا حلوا بما يكشف فيه من الجمال والحكمة. ومدار ذلك كله على ايتاء النفس لذة المجهول التي هي في نفسها لذة مجهولة ايضا. فان هذه النفس طلعة متقلبة لا تبغي مجهولا صرفا ولا معلوما صرفا كانها مدركة بفطرتها ان ليس في الكون صريح مطلق ولا خفي مطلق وانما تبتغي حالة ملائمة بين هذين يثور فيها قلق او يسكن منها قلق في المجهول تروى ظمأ الروح لانه غاية الغايات في حياة الانسان العاقل[3]» «فيما كان وليس بكائن بعد وما سيكون ولم يكون حتى الان وما استحال ولم يمكن امور هي الغاية التي تعمل النفس لاجلها دائما ابدا، وليس البتة بما هو كائن»[4] لان الكائن من خصائص المعلم والمعلم لا يشفي غليل النفس فيظل الانسان في عالم الحيرة والارتباك، ومن هنا «كان لكل امرئ سؤال يتردد بين نفسه وبين السماء فرجل يقول اللهم هذه القوة فاين الرزق، واخر يقول وهذا الرزق فاين القوة وثالث يصيح هذه هي العافية وهذا الرزق فاين السعادة والشيخ علي يقول اللهم انه لم يبق من الانسانية الا حشاشة تسوق بنفسها وكل رجل من هؤلاء مقلدة فاين الاصل»[5]

ولما كان المجهول اسمى المراتب التي تتوق اليه النفس كان على الشاعر الحق ان يضعه في كل معلوم، في الباطن والخارج. وهكذا يصبح الشعر هو ايضا «في اسرار الاشياء ذاتها، ولهذا تمتاز قريحة الشاعر بقدرتها على خلق الالوان النفسية التي تصبغ كل شيء وتلونه لاظهار حقائقه ودقائقه حتى يجرى مجراه في النفس ويجوز مجازه فيها»[6] الشاعر هو الذى يشعرك بمجهول هذه الحياة على حد قول الرافعي.

كانما الكون غيداء بحجبة تطل مشرقة من خلف استار

تلك طلامس الوجود كما يقول الشاعر ايليا ابو ماضي :

---

(١) من كلام الدكتور طه حسين في كتابه مع المتنبي وجه ٨ الجزء الاول

(٢) راجع ما كتبه طه حسين في الجزء الثالث من حديث الاربعاء.

(٣) وحي القلم الجزء الثالث وجه ٢٤٧

(٤) من كلام Paul Valéry في كتابه l'âme et la danse وجه ٦١

(٥) كتاب المساكين للرافعي وجه ٢٥

جئت لا اعلم من اين جئت ولكني اتيت ولقد ابصرت قدامي طريقا فمشيت

وسابقى سائرا ان شئت هذا ام ابيت كيف جئت كيف ابصرت طريقي

لست ادرى

اجديد ام قديم انا في هذا الوجود هل انا حر طليق ام اسير في قيود

هل انا قائد نفسي في حياتي ام مقود اتمنى انني ادرى ولكن

لست ادرى

الاديب هو الذي يخمن الغيب ويرينا مجاز الحقيقة لا الحقيقة .

المثالية . ومن هنا يكون الاديب مثاليا يفيض على كل شيء شعوره فينفث فيه كل رب الحياة العاطفية جاعلا اياه قلبا ينبض وعقلا يدرك، كأن الوجود برمته انعكاس ما يستحر في باطنه . الاديب يخلق الوجود خلقة ثانية في ادبه لذلك كتب الرافعي في مقال له عنوانه (حديث قطين)[1] قال «ان مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خلق هرتين لا الحديث عنهما؛ فان اجادة الانشاء في مثل هذا الباب الوهبة عقلية تخلق خلقتها السوي الجميل نابضا حيا، كانها وضعت في الكلام قلب هر، او جاءت بالهر له قلب من الكلام. واين هذا من الاطفال في الحادية عشرة وما حولهما؟ وكيف لهم في هذه السن ان يتنبهوا بدقائق الوجود ، ويداخلوا اسرار الخليقة ، ويصبحوا مع كل شيء رهنا بمحله، وعند كل حقيقة موقوفين على اسبابها؟ وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية «كن زهرة وصف، واجعل نفسك حبة قمح وقل» وانما هذا ونحوه غاية من ابعد غايات النبوة او الحكمة؛ اذ النبي تعبير الهي تتخذه الحقيقة الكاملة لتنطق به كلمتها التي تسمى الشريعة، والحكيم وجه آخر من التعبير، تتخذه تلك الحقيقة لتلقي منه الكلمة التي تسمى فن ... ان الكون كله مستقر بمعانية الرمزية في النفس الكاملة اذ كانت الروح في ذاتها نورا وكان سر كل شيء هو من النور والشعاع يجري في الشعاع كما يجرى الماء في الماء وفي امتزاج الاشعة من النفس والمادة تجاوب روحاني هو بذاته تعبير في البصيرة وادراك في الذهن وهو اساس الفن على اختلاف انواعه في الكلمة والصورة والتمثال والنغمة؛ اي الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى»[2]

الادب نظر الى الطبيعة وتفسيرها على ضوء النفس الانسانية. والانسان وحده لا سواه يميل الى معرفة المجهول الكائن خلف الظاهر، لذلك كان الاديب نفاذا الى دخائل الامور واسرار المشاهد ليلتقط الخفي كما يراه. والفن السامي هو المنبثق من الروح التي تداور الامور ليرى الرائي مجازه، ويسمع السامع صمتها، ويقرأ القارئ غيبها من خلال (انا)، اذ ذاك يحصل التعاطف بيننا وبين الطبيعة لانه في الحق تعاطف بيننا وبين انفسنا . والانسان في مجمل حياته المعاشية تحت سيطرة الحواس وبذلك يحجب عن نفسه . ولكن

---

(١) هو انشاء اعطي للاولاد الصغار عام ١٩٢٤ في امتحان شهادة اتمام الدراسة الابتدائية.

(٢) وحي القلم الجزء الاول ص ٤٢

الفن يجلو هذه الصفحة فيدك الحاجز المرتفع بيننا وبين انفسنا، ويكسر السدود القائمة بيننا وبين الطبيعة، فتشف الستائر عن وجداننا، وتسترق البراقع السميكة عن بصيرتنا، وينكشف لنا كمين الحياة لتذاع لنا حقيقة الروح التي ترينا الاشياء من خلال نقابنا (فالانسان وعاء من الاوعية لإملاء الا الافكار والنزاعات، ومتى احتل الفكر وتمدد ثم ضرب فتمكن ثم غار بجذوره وتشعب بفروعه صبغ الاشياء كلها في عيني صاحبه بالوان منه حتى كأنه لا ينبعث في اشعة النظر الا ليلبس كل ما تنظره العين فلا يرى المرء فيما يرى الا صورا من فكره كما تنبعث اخيلة السيما في انوارها على حائطها فاذا هو تاريخ وحكاية وعمل وحياة واذا هي على انه حائط)[1]

لا شك ان في الانسان (انا) متى استكملت نضجها عادت الحقائق كلها لا تاتي في هذه الدنيا الا منها لترجع في ايابها الى (انا) فيصبح هذا الكون باجمعه شاشة بيضاء تمر عليها اخيلة الباطن في الانسان اذ يكون بالواقع هو تلك الاخيلة عينها لا غير، لذلك كانت (اشواق النفس هي مادة الادب؛ فليس يكون ادبا الا اذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى او كان متصلا بسر هنا في الحياة فيكشف عنه او يومئ اليه من قريب، او غير للنفس هذه الحياة تغيرا يجيء طباقا لغرضها، واشواقها؛ فانه كما يرحل الانسان من جو الى جو غيره، ينقله الادب من حياته التي لا تختلف الى حياة اخرى، فيها شعورها ولذتها وان لم يكن لها ولا زمان؛ حياة كملت فيها اشواق النفس، لان فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكليف ولعمري ما جاءت الجنة والنار في الاديان عبثا؛ فان خالق النفس بما ركبه فيها من العجائب، لا يحكم العقل انه تم خلقها الا بخلق الجنة والنار معها، اذ هما الصورتان الذ اتمتان المتكافئتان لا شواقها الخالدة ان هي استقامت مسددة او انعكست حائلة. وقد صح عندى ان النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتحس وحدة الشعور ووحدة الكمال الالهي — الا في ساعات وفترات تنسل فيها من زمنها وعيشها ونقائضهما واضطرابها الى (منطقة حياد) خارجة وراء الزمان والمكان، فاذا هبطتها النفس فكانما انتقلت الى الجنة واستروحت الخلد؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون الا في اربعة: حبيب فاتن معشوق اعطي قوة سحر النفس، فهي تنسى به؛ وصديق محبوب وفي اوتي قوة جذب النفس، فهي تنسى عنده؛ وقطعة ادبية آخذة، فهي ساحرة كالحبيب او جاذبة كالصديق؛ ومنظر فني رائع فيه من كل شيء شيء.

وهذه كلها تنسي المرء زمنه مدة تطول وتقصر؛ وذلك فيها دليل على ان النفس الانسانية تصيب منها اساليب روحية لاتصالها هنيهة بالروح الازلي في لحظات من الشعور كانها ليست من هذه الدنيا وكانها من الازلية؛ ومن ثم نستطيع ان نقرر ان اساس الفن على الاطلاق هو ثورة الخالد في الانسان على الفاني فيه؛ وان تصوير هذه الثورة في اوهامها وحقائقها يمثل اختلاجاتها اختلاجا كاملا في الشعور والتاثير هو معنى الادب واسلوبه)[2]

---

(١) رسائل الاحزان وجه ١٢٦

(٢) وحي القلم الجزء الثالث وجه ٢٤٨

ونفي التزوير عنها، واخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات، ثم تصحيح الفطرة الانسانية

(واذا كان الامر في الادب على ذلك، فباضطراره ان تتهذب فيه الحياة وتتادب، وان يكون تسلطه على بواعث النفس دربة لاصلاحها واقامتها، لا لافسادها ولا لانحراف بها الى الزيغ والضلالة؛ وباضطرار ان يكون الاديب مكلفاً تصحيح النفس الانسانية في الوجود ونفي الوثنية عن هذه الفكرة، والسمو بها الى فوق ثم الى فوق ودائما الى فوق.

وانما يكلف الاديب ذلك لانه مستبصر من خصائصه التميز وتقدم النظر وتسقط الالهام، ولان الاصل في عمله الفني الا يبحث في الشيء نفسه، ولكن في البديع منه، والا ينظر الى وجوده، بل الى سره؛ ولا يعني بتركيبه بل بالجمال في تركيبه؛ ولان مادة عمله احوال الناس، واخلاقهم، والوان معايشهم، واحلامهم، ومذاهب اخيلتهم وافكارهم في معنى الفن، وتفاوت احساسهم به، واسباب مخاويهم ومراشدهم؛ يسدد على كل ذلك رايه، ويجيل فيه نظره، ويخلطه في نفسه، وينفذه من حواسه، كانما له في السرائر القبض والبسط، وكانما ولي الحكم على الجزء الخفي في الانسان يقوم على سياسته وتدبيره، ويهديه الى المثل الاعلى؛ وهل يخلق العبقري الا كالبرهان من الله لعباده على ان فيهم من يقدر على الذي هو اكمل والذي هو ابدع، حتى لا ييأس العقل الانساني ولا يتخاذل، فيستمر دائبا في طلب الكمال والابداع الموزون لا نهاية لهما؟

«فالاديب يشرف على هذه الدنيا من بصيرته فاذا وقائع الحياة في حذو واحد من النزاع والتناقض، واذا هي دائبة في محق الشخصية الانسانية، تاركة كل حي من الناس كانه شخص قائم من عمله وحوادثه واسباب عيشه؛ فاذا تلجلج ذلك في نفس الاديب اتجهت هذه النفس العالية الى ان تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة، وقامت حارسة على ما ضيع الناس، وسخرت في ذلك تسخيرا لا تملك معه ان تابى منه، ولا يستوى لها ان تغمض فيه، وثقلت الانسانية كلها ووضعت على مجاز طريقها اين توجهت، فتأكد الامر فيها، ووصل بها، وعلمت انها من خالصة الله، وان رسالتها للعالم هي تقريب الحب للمتعادين، وبسط الرحمة للمتنافرين، وان تجمع الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذته، وتصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها، وتشعرهم الحكمة وهي لا تتنازع في مناحيها؛ فالادب من هذه الناحية يشبه الدين، كلاهما يعين الانسانية على الاستمرار في عملها، وكلاهما قريب من قريب؛ غير ان الدين يعرض للحالات النفسية ليامر وينهي، والادب يعرض لها ليجمع ويقابل؛ والدين يوجه الانسان الى ربه، والادب يوجهه الى نفسه؛ وذلك وحي الله الى الملك الى نبي مختار، وهذا وحي الله الى البصيرة الى انسان مختار»[1]

المثالية تقيم في الطبيعة خيالا عذبا من النفس، وتنفث فيها لين الحياة وبعد الفكر، وذلك تحيطها بهالة من الغموض الروحي هو نفسه الذي يحسه الانسان عندما يقف امام مشهد من مشاهد نفسه، والاديب الحق هو الذي يشعرك بنفسك عندما يتحدث عن نفسه، جاعلا اياك تعلم ما كنت تجهله، فينوص بك

(١) وحي القلم الجزء الثالث صفحة ٢٥٢

في دقائق نفسك بنفسه وخوالج قلبك بقلبه ولوامع روحك بروحه، وهكذا يلقنك دروسا هي اشرف ما يصبو اليه الانسان في انسانيته، فيكشف لك عن المعلوم في المجهول ويريك المجهول في وضح المعلوم «واساس عمله دائما ان يزيد على كل فكرة صورة لها، ويزيد على كل صورة فكرة فيها، فهو يبدع المعاني للاشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها، ويبدع الاشكال للمعاني فيوجدها هي في الحياة، فكأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني»[1] الاديب الحق يرى نفسه في الوجود، ولا يتعاطى الاشياء المادية الا من حيث انها اشعاع باطنه في الخارج، وصدى ما يتناغم في داخله من ترانيم والحان، فيفقه الوجود بعقله وتنطوي نفسه على العالم الخارجي ليخلقه خلقة ثانية حسب جبلته الانسانية العالية. والشعر هو «فن النفس الكبيرة الحساسة الملهمة حين تتناول الوجود من فوق وجوده في لطف روحاني ظاهر في المعنى واللغة والاداء»[2]

الالهام: ولكن اخراج المجهول من المعلوم على ضوء مثالية (انا) لا يعود الى نشاط الاديب الا في اقله، فللسماء شركة في هذا العمل واعني بذلك ان الاديب ابن الالهام «لا يرى الرأى بالاعتقاب والاجتهاد كما يراه الناس وانما يحس به فلا يقع له رايه بالفكر بل يلهمه الهاما؛ وليس يؤاتيه الالهام الا من كون الاشياء تمر فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر فيحس اثرها فيه فيلهم ما يلهم ويحسبه الناس نافذا بفكره من خلال الكون على حين ان حقائق الكون هي النافذة من خلاله»[3]

«وهذه الحاسة (الالهام) ... تكون في صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه في الطيور التي تقطع في جو السماء الى غاياتها البعيدة من قطب الارض الى قطبها الاخر بغير دليل تحمله، ولا رسم تنظر فيه، ولا علم ترجع اليه؛ وكما تكون حاسة التمييز في النحل الذى يبني عسلته على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة، وحاسة التدبير في النحل الذى يدبر مملكته بغير علم الممالك وسياستها؛ وكثيرا ما يجيء الاديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه واسرار الطبائع واوصافها بما يخطىء على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء، ومثل هذه العبقرية هو عندى فوق العلم لا اقول بدرجة ولكن بحاسة.

---

(١) وحي القلم الجزء الثالث وجه ٢٥٠.
(٢) " " " " " ٢٧٧
(٣) " " " " " ٢٧٧

((و بالالهام يكون لكل عبقري ذهنه الذي معه وذهنه الذى ليس معه؛ اذ كانت له من وراء خياله قوة غير منظورة ليست فيه، ومع ذلك تعمل كما تعمل الاعضاء في جسمه، هينة منقادة كانها تتصرف على اطراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلى عليه (١)))

المجهول غاية كل ادب صاف رفيع، وهو اوسع من طاقة الانسان العقلية، لذلك يفرض على الاديب بطريقة الهامية. وما الالهام الا رشاش نوراني تذره قوة غيبية من حين الى آخر على الانسان الذى يكون قد تعهد في باطنه قوة التقاط هذا المجهول ساعة يحصل التلاؤم بينهما، لهذا يتنازع الاديب ذهنان: ذهن معه وذهن ليس معه يمده بالحقائق من وراء قوة خفية مغايرة للذهن الذى فيه. لذلك كان الادب وقفا على الاديب يعطاه من خارج باطنه اى انه يتسلمه من تلك القوة الخفية الكامنة في الذهن الذي ليس معه .

__الاسلوب__: ولكن الرافعي لا يعني بذلك ان الاديب آلة لا غير يعبر الغيب منه الى الناس دون ان يكون له عمل ايجابي تظهر من خلاله شخصية. فاذا كان الالهام ضروريا كنقطة انطلاق، فهناك مرحلة خاصة بالاديب هي الاسلوب البياني الانشاء وهو الانسان عينه هكذا قيل، به تظهر خصائص الاديب وتشع روحه في الفاظه لانها من صنعه بل من خلقه في حين انه يستمد الافكار من خزين عالم هو الغيب، فيتلقاها بالالهام ويعطاها بالحدس والتلقين. اما الاسلوب فهو من سبكه، وبه يعرف لان الكتابة لا تدرك عن طريق الفطرة كالمعاني، بل هي وليدة عناء شديد والم في بعض الاحيان. بالاسلوب يبرز طابع الاديب بقدر ما يحمل الكاتب على تنقيح اسلوبه والمضي في ادارته حتى يحصل التساوي بين الفكرة واللفظة، بعدها يكون خلاقا لا مخلوقا ((ومشاركة العلماء للادباء توجب ان يتميز الاديب بالاسلوب البياني اذ هو كالطابع على العمل الفني وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الانسان الموهوب الذى جاءت من طريقه، ثم لان الاسلوب هو تخصيص النوع من الذوق وطريقة من الادراك كأن الجمال يقول بالاسلوب: ان هذا هو عمل فلان .

((وفصل ما بين العالم والاديب، ان العالم فكرة، ولكن الاديب فكرة واسلوبها؛ فالعلماء هم اعمال متصلة متشابهة يشار اليهم جملة واحدة، على حين يقال في كل اديب عبقري: هذا هو هذا وحده؛ وعلم الاديب هو النفس والانسانية باسرارها المتجهة الى الطبيعة، والطبيعة باسرارها المتجهة الى النفس؛ ولذلك فموضع الاديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الاسرار (٢)))

((ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب، تخرج بها الالفاظ اكبر مما هي، كانها شبت في نفسه شبابا، واقوى مما هي كانما كسبت من روحه قوة، وادل مما هي كانما زاد فيها بصناعته زيادة؛ فالكاتب العلمي تمر اللغة منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت، عليها طابع واضعيها؛ ولكنها من الكاتب البياني تمر في مصنع، وتخرج بها الى

---

(١) وحي القلم الجزء الثالث ص ٢٦٥
(٢) " " " ص ٢٥١

الى اسمى مراتبها؛ وانت مع الاولين بالفكر، ولا شيء الا الفكر والنظر والحكم، غير انك مع ذي الحاسة البيانية لا تكون الا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والاحساس والعاطفة والرأي "(١)

جولة حول نظرياته في الاسلوب .

للرافعي جولات بعيدة المدى في التكلم عن الاسلوب واهميته الادبية، فهو من الذين اعاروه قسطا وافرا من العناية حتى لا نكاد نقول بان ادب الرافعي هو ادب اسلوب في معظمه، ولذلك أجدني مضطرا الى التحدث عن موسيقية الكلمة ثم عن البيان .

الكلمة . اظهر الرافعي في تحليل الكلمة عبقرية فذة تنم عن حساسية مرهفة الى حد قصي، فقد استطاع ان يسبر غور الكلمة بل اغوارها بفضل اطلاعه الواسع على تراث لغتنا، وان يمعن النظر في سر عجزها واعجازها، لذا لا ارى مانعا من المرور ولو سريعا على بعض آرائه العديدة التي حاول فيها ان يكشف عن قوة الالفاظ في الاداء . ويرجع نحته للكلمة وميله لبرقشة العبارات الى ان الكلمة عاجزة عن اخراج المعنى اخراجا صحيحا، لذلك كان يغرق في تنقيح الجمل ليتوصل بهذا العمل المضني الى تقريب المدى الكائن بين الكلمة الصوتية والمعنى الذهني فهي بحد ذاتها جمود والفكرة حركة وحياة، والانسان يمر احيانا في جو من العواطف الجياشة والمشاعر الصاخبة تثب الروح بها وثبات يضيق الجسم فيها لبعد مداها، فينبض القلب نبضات كالقذائف كلها نار محرقة بآلامها وبؤسها ودموعها تمر فيك كأنها اليم الطاغي بامواجه المتلاطمة، اذ ذاك يحتقل اللسان وتشل قوى التكلم فيصبح الانسان وكأنه ابكم حيال هذه الفوارة العاطفية، تلك حالات يضيق فيها البيان لتتلعثم البلاغة والفصاحة، وتحترق الالفاظ وهي بعد في الحلق بكهاية المشاعر والعواطف . ذلك عجز في اللغة وتقصير في نشاطها لادائي "عن بيان معانيها بيانا يطابق نوع الخلق ويوافق حالة الوجود، فانا قيل امامك جاء زيد وكنت لا تعرف من زيد مَنْ زيد هذا لم تعد ان تتمثل رجلا من الرجال ولكنك اذا عرفته تمثلت نوعا من الخلق متميزا بحالة من احوال الوجود . ومن هنا كان التاريخ — الذى هو بيان نفسي محض لا يؤدى الا بالالفاظ — من المعاني الكلية المبهمة التي لا تثبت على قياس واحد من الحقيقة بل لا بد فيها من الزيادة والنقص لان مرجعها الى التصور وهو مجموع ظلال متقلبة على النفس ومن التاريخ ما لا يقتصر الابهام على مدلوله فقط ولكن يتناول الالفاظ الدالة ايضا وذلك لان صورته الذهنية تكون في مجموعها ملفقة غير مضبوطة على قياس مما ألف من حياة المتكلم، فاذا اصاب تلك الالفاظ لم يجد لها في ذهنه رسما معينا لانها اطلال زمنية واكثر ما يكون ذلك في العادات والمصطلحات اللغوية التي تتغير بتغير الازمان والاقوام فاذا انقرض اهلها انقرضت معهم وبقيت الفاظها في اللغة مبهمة في ذاتها

(١) وحي القلم الجزء الثالث صفحه ١٥

حتى اذا الحقت بالشرح التاريخي او اللغوي الذي يكشف غموضها ويزيل ابهامها دخلت في الحياة الذهنية ولكنها تبقى مع ذلك بالنسبة لانقطاعها من الوجود بقايا اثرية في اللغة)[1] وقد يمر الانسان في ساعات من الحب والهول او الرغبة لا تستطيع الكلمة فيها ان تعطي معاني هذه الحالات (فتعجز كل اللغات عن تصوير احساس كامل بحيث يكون اثره على مقدار واحد في نفس صاحبه ونفس غيره، اذ هو حياة لا تلبسها العبارة الا بمقدار ما تومئ اليها وهو كالروح في جسمها يدل عليها بتركيبه ويكشفها باعماله ثم تبقى مع ذلك خافية الا اذا اخترع لها جسم جديد على تركيب جديد يبنى على اظهارها دون اخفائها)[2] (واللغات تعجز احيانا بما نحملها فلا تحسن التعبير اذا كانت العاطفة قوية مهتاجة وقد نشبت في عاطفة اخرى مثلها، فاذا ضاقت الروح بهذا العي عمدت الى لغتها الاولى فارسلت العاطفة لونا في الوجه اذا كانت حياء او خوفا او رعدة في الجسم اذا كانت فرحا او حنقا ودمعا في العين اذا كانت حزنا او قهرا وضحكا وابتساما ان كانت اعجابا وطربا)[3] (ومثل من يحاول ان يصف دموع هذه الجميلة وحسراتها وصفا ناطقا يتنفس به القلب كمثل من يريد ان يخلق بسحر البيان زلزلة ترجف بها الارض حين يبالغ في وصف الزلزلة، وما اللغة الا اداة فكيف وبحلة تستعمل هذه الاداة في صفة قوة تعجز عندها كل وسيلة حتى الشعور الذي ابدع اللغة)[4]

تمسكه باللغة العربية : قد يعتقد القارئ ان الرافعي لم يابه للغة نظرا لعجزها عن اداء المعنى اداء تاما. ولكن الواقع عكس هذا، فهو بياني من الطراز الاول اشتهر بدفاعاته عن اللغة العربية اذ جرد فيها قلمه على اولئك الذين ارادوا الحط من كرامتها. فكان غيورا عليها واعيا اكثر من غيره (ان عليه رسالة يؤدي بها الى ادباء الجيل، وان له غاية اخرى هو عليها اقدر وبها اجدر، فجعل الهدف الذي يسعى اليه .... ان ينفخ في هذه اللغة روحا من روحه يردها الى مكانها ويرد عنها، فلا يجترئ عليها مجترئ، ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر، الا انبرى له يبدد اوهامه ويكشف عن دخيلته، ونظر فيما يكتب الكتاب في الجرائد، وما يتحدث به الناس في المجالس، فرأى عربية ليست من العربية، هي عامية متفاصحة، او عجمة مستعربة، تحاول ان تفرض نفسها لغة على اقلام المتادبين والسنتهم، فقر في نفسه ان هذه اللغة لن تعود الى ماضيها حتى تعود (الجملة القرآنية) الى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الادباء، وما يستطيع كاتب ان يشحذ قلمه لذاك الا ان يتزود له زاده من الادب القديم)[5] وساله مرة يعقوب صروف لم لا يكتب بلغة سهلة يفهمها الناس كلهم كما يكتب في تاريخ اداب العرب، فرد عليه في الرسالة بهذا الجواب المسهب الذي جاء فيه ما يلي (تمنيتم لو جريت في انشائي كله مجرى اسلوبي في تاريخ آداب العرب ومقالات اخرى، ولوددت والله ان ارفه عن نفسي، واطرح عني الكد فيما عالجته من اسلوبي: حديث القمر، والمساكين، ورسائل الاحزان، والسحاب الاحمر، ولكني

(١) تاريخ آداب العرب الجزء الاول وجه ١٥٩
(٢) اعجاز القرآن وجه ٢٢٢
(٣) رسائل الاحزان وجه ١٦١
(٤) كتاب المساكين وجه ١٩٥ ٥ - حياة الرافعي للعريان وجه ٥٥

اجدني كالمسخر في ذلك لقوة تساورني في اوقاتها وتهب علي كالريح من سكون وركود، فلم افكر قط في كتاب من هذه الكتب، ولكن تقع الحادثة، فيجي بها الكتاب، ثم ارى من بعد صوته وتعلق المتادبين به ما لم اكن اقدر بعضه وتنتهي الى اراء مشيخة الادب وطلابه؛ فاذا هم لا يعدلون بهذا الاسلوب شيئا في نسقه والفاظه ومعانيه، ثم لا يحيه الا من قصر عنه وشق عليه النزوع فيه وكابر في الاقرار بعجزه، فذهب يلتمس المعاذير والمعايب، واخذ في ذلك ماخذ فرعون اذ جاءته امرأة فقيرة كانت هي واطفالها يعيشون على درة (عنزة) لهم، فماتت، فاقبلت المسكينة بها على هذا الذى يدعي الالوهية ويقول انا ربكم الاعلى وسالته ان يحييها، فاعتذر بان في السموات اعمالا كثيرة اكبر من العنزة ...

((ارى المتادبين يعرفون لهذا الاسلوب ما يعرف رجال التربية والتعليم من اساليب انشاء التصور وارهاف الذهن وتدقيق الخيال وقوة الطبع اللغوي وصقله وادارة الحس عليه. ثم هم يقولون ان موضعه من هذا الكلام الغث المتهالك الذى ترمي به الاقلام المريضة في هذا العصر موضع الفحولة التي لا بد منها في الخليقة لايجاد القوة التي لا تكون الا بالفحولة واشعار الهيبة التي لا تكون الا بالقوة. فنحن في زمن كل كاتب فيه قادر على ان يرسل مداده، يعطر وحلا لغويا، حتى كل من يعرف القراءة هو كاتب ان صح او افسد، وان اصابها او اخطاء، وان اخذ اللغة والكتابة من معجماتها ودواوينها ومدارسها، او اخذها من الروايات والجرائد والاسواق .

((يقولون هذا ويضيفون اليه ان الفصاحة العربية كادت تنقطع امثلتها العليا، وانه لم يعد يكمل احد في صناعة الكلام وان زمننا هذا حين ينقلب الى مرآة التاريخ فيها ، سيرى وجهه متورما مخدشا مضمدا ملفوفا بالجرائد ... وليس عليه سمة جمال ولا فيه من الادب منظر قوة، وان اللغة اصبحت اشبه بالبيت المتداعي الذى يريد ان ينقض لا تسمع من اهله ولا جيرانه ولا من السابلة في طريقه الا ((هدوا هدوا الى الاساس))

((علم الله يا سيدى الشيخ انيما كنت اصبر على مصيبة البلاغة ... لولا ثقتي باجرها ولولا استئناسي الى المعزين فيها، وهم جمهور اهل الادب الا قليلا يخرب في اسلوب آخر يضحكني احيانا .

((اما هذا الذى يسمونه غموضا وتدقيقا فما انا بصاحبه ولا العامل فيه، ولكنه طور من اطوار الزمن لا بد ان يسبق نهضة التجديد كما سبقها من قبل فلقد كانوا يصفون به سيدي شعراء العربية قاطبة ابا تمام والمتنبي حتى قالوا في ابي تمام انه افسد الكلام واحاله عقدة بتعمله وصناعته، وانه اتعب الناس حتى صار استخراج معانيه بابا مفردا في الادب ينتسب اليه طائفة من العلماء، وان اعرابيا سمع قصيدته التي مطلعها: طلل الجميع، فقال ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها، فاما

ان يكون قائلها اشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منه . وهذه شهادته بانه اشعر من جميع الناس ولا ريب اذ يستحيل ان يصح الشق الآخر . ثم كان جمع من كبار الرواة يتعصبون عليه كابن الاعرابي والرياشي وغيرهما ، بل قد بلغ من تعصب الرياشي عليه وعلى البحتري ان قلت نسخ ديوانهما بالبصرة في زمنه لزهد الناس فيهما . ولقي المتنبي شرا مما لقي استاذه ومثله الاعلى الذي يقلده ويحتذى عليه ! ومع ذلك انحدر الشعر كله في طريقتهما الى عصرنا هذا .

((ولقد كان المتنبي خمل اسمه من لوح الزمن لوكان يعيب البلاغة عيب سيكون معها فقد قال فيه الامام العسكري لا اعرف احدا كان يتتبع العيوب فياتيها غير مكترث الا ابو المتنبي ، فانه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما اعدمه شيئا منها قلنا ولكن جميع عيوب الكلام (بهذا الحصر) لم تزد على ان كانت من اقوى الاسباب في تخليد حسنات الرجل .

((ان ارفع منازل البلاغة العربية ، كما قالوا ، ان يكون في قوة صانع الكلام ان ياتي مرة بالجزل واخرى بالسهل ، فيلين اذا شاء ، ويشتد اذا اراد . ولا يبلغ هذه المنزلة احد فيحكمها ويعطيها حقها من التمييز الا جعلته الاقدار وسيلة من وسائل حفظ البلاغة يتسلم الزمن ويسلم ، بل قل بالالفاظ الصريحة المكشوفة : يتسلم لغة القرآن ويسلمها . فاما اسلوب واحد وطريقة واحدة فهذا في قوة كل كاتب على تفاوت فيه ، ولن يكون الرجل حق رجل الا اذا كان له مع الظرف واللين والدماثة حديدا من العضلات وفولاذا من العظام ، فان لم يكن الا اللين محضاً والاسترسال خالصًا فهذا - اصلحك الله - شيء سمه ما شئت الا ان تقول انه رجولة . فاذا لم يبلغ كل الناس ولا اكثرهم هذه المنزلة فذلك أحرى ان يعد في محاسن من يبلغها لا في معايبه .

((الا لا يحسبن احد ان الفصاحة العربية هالكة بحياة طائفة من مرضى القلوب كهؤلاء الكتاب الذين يحملون جهدهم في افسادها ، فهم مهما كثروا تنتظرهم قبور في بعددهم . وفي هذه البلاغة العربية خاصة ينبغ الكاتب الواحد في عصر من عصور الضعف ، فاذا الف كاتب يتساقطون حوله ، واذا الكاتب كان سنة من سنة الكون تضرب ضرباتها بالقضاء والقدر))(1)

وقد ذهب في انعكافه على هذه اللغة واستقصاء كنوزها التعبيرية الى القول بان (العربية تعتبر احكم اللغات نظاما في اوضاع المعاني وسياستها بالالفاظ وهي من هذا القبيل اعظمها ثروة وابينها من حقيقة التمدن بحيث لا تدانيها لغة اخرى كائنة ما كانت)(2) ولو احد عكف على هذه اللغة فتتبع الفاظها وتدبر وجوه اشتقاقها وتفقد مواقعها في كلام العرب ورتب صيغها واوزانها على ما تقتضيه

(1) الرسالة عدد ٣٥٩ في ٢٠ مايو سنة ١٩٤٠ السنة الثامنة وجه ٨٥٢ تحت عنوان : اسلوب الرافعي وطريقته في كتابته للاستاذ محمود ابو ريه .

(2) تاريخ آداب العرب وجه ٢٢٩

افراضها بحيث يستقر كل مثال منها في نصابه ويرد الى حيزه لجزء من ذلك بحلم يكشف عن كثير اسرار الوضع ويهتك عن استار الحكمة المستكنة في دقائق هذه اللغة العجيبة) [١] وقال ايضا (العرب ثم مضللون كان تمدنهم معنويا ولو جردتهم من مزايا لغتهم والقيت في افواههم اصول اى لغة من لغات العالم لخرجوا بها جنسا مغمورا في الاجناس ولكانت حريتهم عبثا ونظام قبائلهم فسادا ولصاروا في الجملة الى حال الشعوب التي لا يدور بها الزمان ولكنه يلقي عليهم الامم كلما دار ويقابلهم بالمكتشفين والفاتحين والمتخطفين وغيرهم من اجناس المجتمعات المتمدنة. بيد ان الحكمة القت في طباعهم هذا النظام اللغوى وجعلتهم بحيث ينساقون في سبيله الى الكمال لا تعترضهم عقبة ولا يصرف وجوههم عنه صارف من نظام المدنية فمضوا على ذلك واللغة تتخطى بهم درجات الاجتماع واحدة فواحدة حتى انتهت بهم الى الوحدة الجنسية فتخير مجموعهم وانصب على العالم بقوة جديدة فتية صادفت دولا قديمة بالية فصدمتها تلك الصدمات التي هدمت التاريخ وبنت بعدها بناء جديدا، ولولا اللغة ما انتظم امر العرب لانهم قضوا اجيالا قبل تمدنهم اللغوى لم ينبه لهم شان في انفسهم ولا عدوا في اجتماعهم امر النظام الطبيعي الذى هو وسيلة حفظ الحياة لنظام الحي لا حفظ الحي لاتمام نظام الحياة كما هو شان التمدن الاجتماعي. واللغة هي التي جذبتهم الى هدي الاخلاق بالشعر والى هدي السياسة بالخطابة والى هدي الدين بالقرآن) [٢] وانا اتلمح دائما العامل الالهي في كل اطوار هذه اللغة واراه يديرها على حفظ القرآن الذى هو معجزتها الكبرى واري من اثره مجيء تلك الكتب على ذلك الوضع وتسخير تلك العقول الواسعة من الرواة والعلماء والحفاظ جيلا بعد جيل في الجمع والشرح والتعليق بغير ابتكار ولا وضع ولا فلسفة ولا زيغ عن تلك الحدود المرسومة التي وشتنا الى حكمتها؛ فلو انه كان فيهم مجددون من طراز اصحابنا من اهل التخليط، ثم ترك لهم هذا الشان يتولونه كما نرى بالنظر القصير والراى المعاند والهوى المنحرف والكبرياء المصمة والقول على الهاجس والعلم على التوهم ومجادلة الاستاذ حيص والاستاذ بيص ... اذن لضرب بعضهم وجه بعض وجاءت كتبهم متدابرة، ومسخ التاريخ وضاعت العربية وفسد ذلك الشان كله، فلم يبق منه شيء »

ما اتيت بهذه الامثلة العديدة من اقوال الرافعي الا لأُرِيَ شغفه وتعلقه بهذه اللغة اداة تامة وتشديده على تقديسها بالرغم مما قاله في عجز الكلمة عن اداء المعاني الباطنية. فهو حارس من حراسها النشيطين المحافظين على كرامتها واحترام تراثها، وله نظريات بعيدة المدى في تشريح

(١) تاريخ آداب العرب وجه ١٧٤
(٢) " " " " ٢١٧
(٣) وحي القلم الجزء الثالث ٢١٠

تشريع السنن التي يجب على الاديب ان يسير بموجبها ليتوصل الى التزويج بين الفكرة واللفظة .
وبذلك يكون الرافعي قد حاول ان يقيم التساوي بينهما قدر المستطاع «لان الالفاظ هي التي تسوس المعاني وتنزلها في منازلها وتضعها على اقدارها لا من حيث ان اللفظ هو الذي يوجد المعنى ، فذلك ظاهر الاستحالة ، ولكن على انه هو الذي يخصص المعنى اذا كان جنسا وهو الذي يؤكده مبالغة في تلوين صورته النفسية حتى تنطق اجزاؤه وحتى يقوم كل جزء منها في البيان اللغوي مقام الكل الذي هو مادة الشعور الطبيعي . ولما كانت اللغة عملا نفسيا محضا كان وجود هذا النوع فيها من اخص الدلائل على تمدنها لان النظم الذي يعين درجات المعاني انما يفصل اجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء او بصفاتها وهذا لا يستقيم الا اذا كان في اللغة حياة باطنة تشبه ما في الانسان الراقي مما يسمى بالكمال او الحياة الروحية العالية حتى تتكافأ النفس واللغة في تصور اجزاء المعاني وتصويرها[1] »

سأحاول الآن ان اتتبع قدر الاستطاعة نظريات الرافعي التشريعية في ميدان اللغة .
فقد اتى بفكر اقول عنها بانه بزّ فيها اعاظم البلغاء الغربيين ضمنها كتابيه (اعجاز القرآن) (وتاريخ ادب العرب) .

<u>اللغة بين التوقيفية والمواضعية</u> : مما لا شك فيه ان الانسان لم يلهم اللغة كما هي الان في حالتها الحاضرة ، حسب ظن القدماء الذين قالوا بان ادم قد تعلمها من الله مباشرة[2] «فهو قول من باب التقوى التاريخية لا اكثر لان الانسان خلق مستعدا ليصير بعد ذلك عالما مجتمعا وليجري في كماله المقدور له على سنة الله التي لم تتبدل ولن تجد لها تبديلا . وهذه السنة هي ان المتغير لا يوجد كاملا بل لا بد له من نشأة يمر في ادوارها حتى يتحقق معنى التغير[3] » فاللغة في معظمها «درس تقليدي طويل مداره على التواطؤ والاصطلاح[4] » غير ان التطرف بمثل هذا القول يوقعنا في مشاكل عدة لا يمكن للانسان حلها ما لم يتراجع عن بعض تمسكه الشديد بهذه النظرية . فاذا كانت المواضعة شيئا قد بت في امره العلم والتاريخ ، فذلك لا يعني ان اللغة مجرد التقليد واصطلاح دون ان يكون في الانسان استعداد سليقي ليتقبل هذا التطور ، نعم لم يلهم المرء اللغة كما هي اليوم ولكنه ملهم بفطرته اصول الحياة وليست اللغة باكثر من ان تكون بعض ادواتها التي تعين عليها[5] »

---

(١) تاريخ آداب العرب وجه ٢٢٨
(٢) راجع صبح الاعشى للقلقشندي الجزء الثالث وجه ١٠ المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٤م ١٣٣٢هـ .
(٣) تاريخ آداب العرب وجه ٤٨
(٤) تاريخ آداب العرب وجه ٤٧
(٥) تاريخ آداب العرب وجه ٤٩

هذا قول الرافعي وقد اثبته في مواضع عدة . ورغم تسليمه بالمبدأ القائل بالمواضعة فقد صرح في موقف كثيرة بان اللغة عمل نفسي محض ينبثق من الداخل لا عمل يخرج عن المصادفة والاتفاق ثم تتبع في كتابيه (اعجاز القرآن) و (تاريخ اداب العرب) هذه الاصول النفيسة ونفذ منها الى السنن الواجب على كل اديب ان يسير عليها كي يستقيم كلامه ويقع في نفس القارئ موقعا صائبا سديدا لان الالفاظ هي المعاني المتحركة ، لذلك كان من الواجب احداث التساوي بين الفكرة واللفظة ليصل المعنى الى اذهان الاخرين بدقة واحكام . فاذا كان الاحساس هو اللغة النفسية الكاملة ، كانت اللغة هي الاحساس اصواتا واشكالا ، وقام سر الاعجاز عند الكاتب على ان يلائم بين خصائص النفس وخصائص الكلام وفيما يلي رسم لخصائص اللغة التي تعكس النفس بصدق وامان . قال الرافعي (الكلام بالطبع يتركب من ثلاثة : حروف هي من الاصوات ، وكلمات هي من الحروف ، وجمل هي من الكلم)[1]

الحروف واصواتها . الموسيقى الصوتية منطق الحروف ، لان الحرف صوت والصوت موسيقى . لذا كانت الموسقة في الاحرف هي عينها الموسقة في النفس ، وترتيب الحروف بعضها مع بعض ترتيبا عذبا يستسيغه السمع يقوم على الموسقة بين الحروف وفقا لما تتطلبه الموسيقية النفسانية ، لان الاحرف توقيعات موسيقية . لذلك لا نجد لاصوات الحروف (من نوع في التركيب وجهة في التاليف حتى يمازج بعضها بعضا ويتالف منها شيء ، فتتداخل خواصها وتجتمع صفاتها ويكون منها اللحن الموسيقي ، وهو لا يكون الا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع الى درجات الصوت ومخارجه وابعاده)[2] وكل الذين يدركون اسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية لا يرون في الفن العربي بجملته شيئا يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن[3] ... في ترتيب حروفه باعتبار من اصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير)[4] فالاحرف اذاً تتالف تالفا موسيقيا في نبراتها الصوتية كي تستانس النفس بها . ونحن نعجز عن تحسس لغة من اللغات اذا لم نلم قليلا بموسقة حروفها فاذا جردت الكلمات من المعاني تصبح نبرات صوتية ، والصوت هو انفعال النفس موقعا تسمعه الاذن . لذلك كانت الموسيقى من اكثر الفنون تاثيرا على السامع ، لان (مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وان هذا الانفعال بطبيعته انما هو سبب في تنويع الصوت ، بما يخرجه فيه مدا او غنة او لينا او شدة ، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من اصولها ، ثم هو يجعل الصوت الى الايجاز والاجتماع ، او الاطناب والبسط بمقدار ما يكسبه

---

(١) تاريخ آداب العرب وجه ٢٢١
(٢) اعجاز القرآن وجه ٢٢٤
(٣) " " ٢٢٤
(٤) " " " ٢٢٥

من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها،مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى (١) . . .وتتابع الاصوات على نسب المعينة بين مخارج الاحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الانسان،فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل او اختلاف اللسان؛وعلى هذا وحده يؤول الاثر الوارد في ان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا؛لانه يجنب هذا الكمال اللغوى ما يعد نقصا منه اذا لم تجتمع اسباب الاداء في اصوات الحروف ومخارجها، وانما التمام الجامع لهذه الاسباب صفاء الصوت وتنوع طبقته واستقامة وزنه على كل حرف .

«وما هذه القواصل التي تنتهي بها ايات القرآن الا صور تامة للابعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب؛ وتراها اكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ او بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرار؛فان لم تنته بواحدة من هذه ،كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الاخرى،كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو اشبه واليق بموضعه؛ وعلى ان ذلك لا يكون اكثر ما انت واجده الا في الجمل القصار، ولا يكون الا بحرف قوي يستتبع القلقلة او الصفير او نحوهما مما هو ضرب اخرى من النظم الموسيقى .

«وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، واثرها طبيعي في كل نفس،فهي تشبه في القرآن الكريم ان تكون صوت اعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه،وكل نفس لا تفهمه؛ ثم لا يجد من النفوس على اي حال الا الاقرار والاستجابه؛ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يُطْمَع فيه او في اكثره؛ ولما وجد فيه اثر يتحدى اهل هذه اللغة العربية الى اهل اللغات الاخرى؛ ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز،فتالفت كلماته من حروف لوسقط واحد منها او أُبدلَ بغيره او أُقحِمَ معه حرف اخر، لكان ذلك خللا بينا،او ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة، و في حس السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وافضاء بعضها الى بعض؛ولرايت لذلك هجنة في السمع، كالذى تنكره من كل مرئي لم تقع اجزاؤه على ترتيبها، ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا، وذهب ما بقي منها الى جهات متناكرة (٢) »

هذا بعض ما جاء الرافعي به عن موسيقية الاحرف،وهو على شئ كثير من الحق في هذه الاقوال. اذ اللغة مجموعة الفاظ تتالف من حروف، والحروف اصوات في حد ذاتها، والاصوات موسيقية ناطقة لموسيقية النفس الصامته. فاذا لم يستطع الكاتب ان يلائم بين خصائص موسيقة النفس وخصائص موسيقية الاحرف

---

(١) اعجاز القرآن وجه ٢٢٦

(٢) اعجاز القرآن وجه ٢٢٧

حصل الطلاق بين المعنى وللفظة وانحرفت العبارة عن مصدرها الذى هو النفس وقصر الانشاء عن ان يعطي صورة صادقة عما في داخل الانسان، لذلك تبرز بعض الحروف مستهجنة عندما تلتحق بغيرها، لان الوضع الايقاعي لم تراع فيه البلاغة الموسيقية.

<u>الكلمات وحروفها</u> . الحروف رعشات موسيقية قصيرة المدى لا تعكس لنا من النفس غير موجات باطنية قصيرة المدى ايضا، فهي بداءات ادائية تقف عند حد التعبير عن بعض المشاعر الاولية. ولكن الانسان لا يكتفي في بهذه النبرات الموسيقية القصيرة. فاذا احس بامواج وجدانية اطول في انبساطها وامتدادها وكأن قد عبر الى منطقة المعنى عمد الى تاليف الحروف تاليفا منسجما ليخلق الكلمة «والكلمة انما هي صوت النفس لانها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه من المناسبة قد لحظته النفس فيها من اصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا الترتيب»(١) وهنا يشير الرافعي اشارة خفيفة الى الرابطة الواجب احداثها بين المعنى والكلمة التي تومىء اليه. فثمة توازن بينهما واتساق وتناسب، لذلك لا يجوز لنا ان نؤلف الحروف او نقتطع الكلمات كيفما شئنا، بل هناك اصول نفسية ومبادىء موسيقية وذوقية ترسمها السليقة اللغوية في الانسان لوضع الكلمة. ومن هنا كانت بعض الالفاظ تتفشى بسوء وتتداول و البعض الاخر يموت ولا يحكى. فصوت النفس هو الذى يفرض صوت الكلمة، وصوت الكلمة «وصوت الموسيقي الذي يكون من تاليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها وموقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة وعلى نضد متساو بحيث تكون الكلمة كانها خطوة للمعنى في سبيله الى النفس..»(٢)

كثيرون هم الذين لا يابهون للاداء التعبيري ظنا منهم ان الادب فكر لا غير، فلا يهتمون بنحت الالفاظ وانتقائها كي تعكس عكسا محكما ما في النفس من الموسيقى والافكار. ذلك لانهم لا يفقهون منزلة اللغة واتصالها الوثيق بحركات النفس والشعور واندماجها الحميم بكل خفقة من خفقات الفؤاد ورجفات الروح. ومن هنا ايضا كان عمل بعض الكتبة في صقل كلماتهم وغربلتها امثال اناتول فرانس وجوستاف فلوبير وبول فاليرى في الادب الافرنسي وامثال الرافعي في ادبنا الحديث. ولا اجد مبررا لاهمال الاطار اللغوى في ما نكتب لان الكلمة خطوة للمعنى في سبيله الى النفس. فاذا احكم سبكها سلكت على ابراق المعنى الى الاخرين لانها اداة تفاهمية واجبة الوجود يحاول الكاتب نحتها كلما ارتفع في طباق الفكر العليا وتوغل في اقصى الابعاد الذهنية «هي الشكل المحسوس للفكر والعاطفة» واذا كانت اللغة في الاصل مظهرا للاتجاه الكامن في النفس فانها قد اصبحت بناموس التوارث مؤثرة على الاتجاه نفسه بقوة التفاعل المشترك بين العلة ومعلولها. ولقد يخيل للبعض ان الفكرة حر طليق في دوائر يتسنى

(١) اعجاز القرآن وجه ٢٢٠

(٢) اعجاز القرآن وجه ٢٢٠

له بلوغ اوج الافصاح باية لغة يستخدمها؛ على ان القائلين بهذا الرأى يجهلون تاثير التعبير على الفكر نفسه. ان البيان المستتبع بالاتجاه الداخلي امتزاجا لم يسع علماء احوال النفس انكاره. فهو يدوي ابدا في اذان الاحياء بصوتين صوت الام فوق المهد وهاتف الجدود من القبور[1] ان الفكرة لا تنفصل عن اللغة بالسهولة التي نظنها. وهي دليل على رقي ادراكي عند الانسان لانها تستلزم قوى عقلية ثلاث، تستلزم قوة التحليل وقوة التركيب وقوة ادراك العلائق بين الاطراف، وبذلك تكون مرتبطة ارتباطا حميما بنواميس العقل ايضا. بها يخرج الانسان من سديم افكاره الغامض الى وعي نفسه وعيا واضحا، فتكون الالفاظ عينها احيانا واسطة لايقاظ المخيلة والتفكر بالاشياء وربط التصورات بعضها ببعض. لذا كان التدريب اللغوى مراة نفسية لازمة لتربية الشخصية وصقلها في الداخل، واللغة مرآة النفس اذا انحطت وقلت مفرداتها انحطت الشخصية واذا ارتقت وكثرت مفرداتها ارتقت الشخصية[2].

الجمل وكلماتها. كل الفصاحة حسن انتظام الاصوات بين الحروف، وحسن انتظام الحروف في الكلمات، ومن ثم حسن انتظام الكلمات في الجمل واتساقها مع المعاني التي سكبت فيها. وقد تكلمنا بعض الشيء عن موسيقى الحروف وكيف ان خصائصها الصوتية هي خصائص موسيقية النفس، ورأينا ان الكلمات مجموعة اصوات الحروف، بها تخطو النفس خطوة ابعد في التعبير عن موجة اطول، فتعبر الى منطقة المعنى. فلم يبق علينا في هذا التدرج الصاعد الا ان نقول كلمة في الجملة، وما الجملة «الا مظهر الكلام وهي الصورة النفسية للتاليف الطبيعي اذ يحيل بها الانسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة الى معاني صورها في نفسه او تصفها حتى ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها على حين قد لا يراها المتكلم الذى احدثها لكلامه غرضا ولكنه بالكلام كأنه يراها[3]» وهنا تصل النفس الى اوج الصناعة التركيبية اذ تكون الادوات الجزئية قد استكملت كالحروف والكلمات فتؤلف بها تلك القطعة الادائية التي اطلق عليها اسم الجملة. والجملة تعبير عن ذهنيات النفس وخوالج القلب اطول مدى من الحروف والكلمات. فهي صورة طبيعية لتاليف نفسي، والمعاني ليست جامدة ولكنها تحرك دائم وتلاحق مستمر، حينا في ارتفاع وحينا في هبوط، تارة تنفرج انبساطا وطورا تنكمش انقباضا كامواج البحر بين دفع وجذب، لذا ترى الجملة عندما بحكم تنزيل الفاظها ويستدق رصفها تعكس الى الخارج هذا التموج في الباطن. فترى الكلام تارة يحلو في اندفاعه وطورا ينحدر في هبوطه، وترى الانفراج بين الكلمات سائغ يكون بين المعاني، وترى اللولبية في الالفاظ حين تكون بين المعاني. وقصاراه ان معاني الجملة هي معاني النفس خرجت اصواتا واشكالا. وتقوم بلاغة الكلام على الا تنبو كلمة عن كلمة بحيث يشعر القارئ بالترابط بين الجمل كما

---

(١) رسالة المنبر الى الشرق العربي تاليف فيلكس فارس وجه ٧٢

(٢) راجع محاضرتي (الواقع اللغوي وتاثيره على الفرد والامة) العروة السنة ١١ العدد الاول آذار ١٩٤٦ وجه ٢٥

(٣) اعجاز القرآن وجه ٢٤٩

يشعر بالتآخي بين الكلمات والتناغم بين الحروف، فتتنادى الالفاظ وتتجاوب في الجملة بائتلاف يشعرك انك امام وحدة تركيبية لا تتفكك، هذا ما اسماه الرافعي بروح التركيب في كلامه عن القرآن حين قال ((فاذا انت حرفت الفاظه عن مواضعها، او اخرجتها من اماكنها وازلتها عن روابطها، حصلت معك الفاظا كغيرها مما يدور في الالسنة ويجرى في الاستعمال ورايتها - وهي في الحالين لغة واحدة - كانما خرجت من لغة الى لغة لبعد ما كانت فيه مما صارت اليه، بيد انك اذا تعرفت الفاظ اللغة على هذا الوجه في كلام عربي غير القرآن، اصبت امرا بالخلاف، ورايت لكل لفظة روحا في تركيبها من الكلام، فاذا افردتها وجدتها قريبة مما كانت، لانها هي نفسها التي كانت من روح التركيب، ولم يكن لهذا التركيب في جملته روح خاصة بالنسق والنظم، فيعطى كل لفظة معنى في الجملة كما اعطتها اللغة معنى في الافراد، حتى اذا ابنتها وميزتها من هذه الجملة ضعفت ونقصت، وتبينت فيها من الوحشة والقلة شبيه الذى يعرض للغريب اذا نزح عن موطنه وبان عن اهله، وكان كل ذلك فيها طبيعيا لان حقيقة التركيب انما هي صفة الوحي في هذا الكلام.

((وهذه الروح التي اومأنا اليها (روح التركيب) لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس، ولولا ها لم يكن بحيث هو كانما وضع جملة واحدة ليس بين اجزائها تفاوت او تباين، اذ تراه ينظر في التركيب الى نظم الكلمة وتاليفها، ثم الى تاليف هذا النظم، فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة اعجازه في جملة التركيب كما عرفت، وان كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من اغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب؛ كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الامثال، الى نحوها مما يدور عليه ..))[1]

يذكرنا كلام الرافعي بما ذكره عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز في علم البيان قال ((ان الالفاظ اذا كانت اوعية للمعاني فانها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فاذا وجب المعنى ان يكون اولا في النفس وجب للفظ الدال عليه ان يكون مثله اولا في النطق، فاما ان تتصور الالفاظ ان تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وان يكون الفكر في النظم الذى يتواصفه البلغاء فكرا في نظم الالفاظ او ان تحتاج بعد ترتيب المعاني الى فكر تستانفه لان تجئ بالالفاظ على نسقها فباطل من الظن ووهم تخيل الى من لا يوفي النظر حقه))[2]

هذا عرض مقتضب للنظريات الرافعية عن موسيقة الاحرف ومعاني الكلمات وروح التركيب في الجملة نقول على ضوئها بان اللغة مرآة نستشف من خلالها بواطن النفس لانها افكارنا قذفت بتحرك الى الخارج اصواتا واشكالا، والكاتب القدير ينفرد بعبقرية خالدة عندما يحسن انتقاء الالفاظ ويلائم فيما بينها، وهو عمل محض بالواقع تتنزى الروح فيه الاما واوجاعا ليصل الاديب الى التقاط الدقائق النفسية واللوامع القلبية بكلمات

(١) الاعجاز وجه ٢٥٨
(٢) عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز وجه ٤٢

تعكس دوام الداخل على انبساط الفضاء. وهذا التساوي بين اللغة والنفس هو ما اسميه الرافعي بالطريقة النفسية في الطريقة اللسانية . وقد كان يعيره اهتماما كبيرا في حياته الادبية حتى قال عنه الاستاذ العريان «وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول حتى ليقف عند بعض الجمل من انشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ثم لا يجد لها موقعا من نفسه فيردها وما بها من عيب ليبدل بها جملة تكون اكثر رنينا وموسيقى. وكان له ذوق فني خاص في اختيار كلماته يحس القارئ في جملة ما يقرأه من منشآته. وكنت اجد الاحساس به في نفسي عند كل كلمة وهو يملي علي. هذا الذوق الفني الذى اختص به هو الذى هياه الى ان يفهم القرآن ويعرف سر اعجازه في كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة. وحسب القارئ ان يعود الى تفسير الرافعي لقوله تعالي «وراودته التي هو في بيته عن نفسه» ... ليرى نموذجا من هذا الذوق الفني العجيب في فهم اللفظ ودلالة المعنى يقابله وجه اخر من هذا الذوق في اختيار الفاظه عند الانشاء ...»(١)

البيـــــان

«البيان صور نفسية في الطبيعة وصور طبيعية في النفس»(٢) ...

يشق على الكلمة ان ترسم بوسقة حروفها فقط عروق الافكار وخطوط الذهنيات واللامرئية الروح في ابعادها. فيلجاء الاديب والحالة هذه الى تصوير الغيب بالمنظور وسبكه في قوالب حسية ماخوذة من الطبيعة تقربه الينا وتجعله في متناول يدنا. وليس ذلك بالمستغرب فالانسان مفطور على الحسيات يانس بها لانها تعينه على رؤية الغيب في حيز فضائي. وهكذا تعكس المستلهمات البعيدة على سطح الطبيعة فيقرب المدى بيننا وبينها ويدرك المنيع من الوجدانيات وتطمئن النفس الى تلك المعاني المجردة، ذلك سر التجسد. فهو استحالة السماء ارضا والفكرة صورة، هو ادناء الاقصى. وسبب هذا كون المرء لا يستطيع التحديق باللامرئيات العارية وتقصيره على ولوج هذه الارجاء المترامية والاجواء الفسيحة اذ تغشاه الغيبوبة ويقع في دوار شديد فيضل ويسحق من وطأة اللا محدود. ولكنه حين يقف امام البحر ويلقي بنظره على افاق هذا اليم المديد او ينتصب في قلب الصحراء ويرى عظم دائرتها تتجسم له فكرة اللانهاية مرئية فيرتاح بها من عناء التخبط فيما لا لون له ولا شكل. وما الاستعارات والمجازات والكنايات الا حيل بيانية تتجسم المعاني بواسطتها، فهي بمثابة عدسة المجهر التي تقرب النائي وتظهر المحجوب، لذلك تضعنا الصورة وجها الى وجه امام الغيبيات الذهنية شرط ان يكون رائدها الايحاء لا الافصاح.

---

(١) سعيد العريان. حياة الرافعي ١٨٤

(٢) اعجاز القرآن وجه ٢٢١

والمجاز في حد نفسه هو ذاك التناسب الواقع باحكام بين الصورة الطبيعية والمعنى المشار اليه، هو لامرئية الغيب في مرئية الطبيعة . البيان هو تزويج المعاني بما يشبهها في حركة الطبيعة وصورها. وهو لا يقف فقط عند حد تصوير النفسيات بالطبيعة، بل الاستعانة بالنفس ايضا لتصوير الطبيعة وتحليلها مجازيا، لان الاجسام بحاجة الى معاني الروح لتكون جميلة جذابة بما نضع نحن فيها من خوالج نفسية تجعلها ذات حياة وارادة . تلك هي مثالية الادب التي تكلمنا عنها سابقا، فاذا كان بسط الذهنيات في الفضاء لزم ما يلزم لجلاء غوامض النفس كان ايضاح الطبيعة بحاجة الى غموض الروح لترجع المرئيات من نقاء معلومها الى شيء من المجهول المستحب. ومن هنا قول الرافعي في تحديده الشعر .. (ليست هذه المعاني الشعرية الا ظلال لما في الطبيعة وان مثلتها القلوب حقائق منفردة فان القلب الشاعر بينها وبين الطبيعة كالمرآة تظهر اشباحا قائمة وهي على الحقيقة غير اشباح. ~~قائمة وهي على الحقيقة غير اشباح~~، وتمثل لك الارواح في الاجسام ولبس على انفرادها من الاجسام ولا من الارواح. فترى الشاعر ينقل الوردة الى روضة بيانه فتنبت فيها خدا ويغرس الغصن الناعم فيستقيم هناك قدًا . وياتيك باللحظة العين فيطبع منها الحسام. ويتناول ظلالة الاهداب فيريش منها الى الافئدة السهام . او يعقد من ظلالها شركا ينصبه لسوانح المنى في اودية الغرام . وهو في ذلك يعير النفوس اجنحة ترفعها الى جو الخلود فتجمع اليها نضرة العالم في نظره وتطالعها فطرة العادة كانما تقراها من الشعر في خطره . وهذا المعنى في الشعراء اكبر من ان يكون قوة ارضية فلا بد ان يكون الشاعر انسانا فوق الانسان، واعتبر ذلك باخلاقه فانك لا تجده الا اقرب الى الملك او اقرب الى الشيطان. وعلى احدى الجهتين من هذا التاويل يقول ملحدوا الفلاسفة ان الديانات من مختلقات الشعراء . وكانما الشعر نوع من علم سياسة النفس فترى الشاعر يدوار الامور ويريغها طلبا لما تاها والتماسا لما يسيغها . ثم يزيح النفس في الغرض الذي يلقيه اليها عن موضع الاطمئنان الطبيعي به الى جهة من الشك الخيالي فيه ثم يردها الى موضعها الاول فتكون في حركتها هذه قد اضطربت بمقدار ما افسح لها وهذا الاضطراب هو الذي يكون منه الشعور ...

((والكلام لا يرسل الا تمثيلا للاغراض التي تراد به ولكن هذا التمثيل على اطلاقه ليس من صنعة الشعر خاصة بل يجيء الشعر وسيلة لتمثيل روح الغرض ذاته واغاضة الاحساس عليها حتى تتغزز فتتصل بالنفس فتانس بها للشبه الروحي بينهما

(وانت لا تجد للفظة "الحب" معنى كبيرا في ذاتها ولكن الشاعر متى وضع لها صفة وهيئة فمثل الحب والحبيب . وعقد لها طرفين من الغزل والنسيب. وتناول اصوات هذه المعاني فلحنها على نغمات الانين. وجعل لها متنفسا بين تاوهات الحزين. واستوفى هذه الصفة على اصول التمثيل الشعرى واحكمها على مقتضى صنعته فحينئذ ينفتح لك باب "الحب" فترى عالما بين الارض وسماء. تلك افئدة تنبت بالاشواق وهذه اعين تمطر بالبكاء. ثم يمثلك الخيال في مملكة الجمال امام ذلك العرش الذى قامت اركانه على القلوب واستوى عليه دلال الحب ممن يسمونه المحبوب . فاخذ يقسم الحظوظ ويصرف الغيوب بين ارواح مشرقة ينساح ضوءها وارواح تجنح للغروب. على اني مهما بلغ لك هذا القلم في التصوير فلا اراه استمد من بيان "الحب" وبهائه اكثر من تلك النقطة الساقطة من بائه .

(وليس يحتاج ذلك التمثيل الذى عرفت في تمام تصويره الى الوزن لولا ان الوزن الحان تساعد المعنى الشعرى في تهيئة النشاط للنفس حتى ليخيل اليك اذا انشدت ان آخر ينشد معك.

فالوزن بهذا الاعتبار كانه لون جديد في التصوير الشعرى بل هو للنفس عند صورة الشعر اشبه شئ بالنور الذى يتالق فيه ماء الصورة ويتلألأ رونقها فهو يكشف عن تمام حسنها. كما يكشف الضوء من الغمامة عن صفاء مزنها .

(ولهذا تجد من يصابي الشعر فلا يقيم انشاده ولا يستوفي منه مواقع النبر والارسال والترتيب كمن يكسره فلا يقيم وزنه ولا يتم حسنه. وانك لتسمعه من كليهما انكر صوت حتى لو بلغت فيك رقة الطبع فضلت على كل كلمة منه كلمة تشتم بها لتجد فيها على الاقل لذة الحلم .

(ومثل ما عرفت من هذا ما تعرفه من الشعر الذى انهدم فيه ركن التخيل فبقي طللا لا هو بناء ولا هو فناء، فان الاصل في الشعر هذا التخيل ثم تاتي صحة التاليف التي تجدد مادته في انتباه من يلقي اليه وما يقطع بالشاعر الا وقد ضعف معه نظم المناسبات وهو صحة التاليف التي قوامها التخيل حتى انه ليستطيع ان يجمع العالم كله في قصيدة واحدة اذا هو استطاع ان يجد المناسبات التي تؤلف بين مفرداته المتنافرة .

(وترى بين منتحلي الشعر من لا يجد في طبعه قوة التخيل فكلما نظم اخلى ولذلك يعمد الى الالفاظ التي هي مظنة الشعر كالتي تعبر عن العواطف مثلا فلا يزال بها حتى يقع منها على الحيلة في اخراجها مخرج الشعر على ما يتوهم فهو بذلك ينبه النفس الى ما الفت ان يكون فيه سرورها من تلك الالفاظ كالحب والوجد والسعادة والمجد. ولكنه يطردها للشعر من غير ان يحكم المناسبات التي تفيض

عليها الاحساس وتمدها منه بالحياة فلا تبلغ النفس ان تنبسط لكلامه انبساط الحي حتى تجمد جمود الميت فان الشاعر بالفاظه تلك بين حواشي معانيها التي ترف عليها النفوس كانما يطوف بالجنازة في الاعراس ويجد لفساد طبعه وجها من الشبه بين ما يزف الى المقاصير وبين ما يحمل الى الارماس .

وليس هذا الشعر في الالفاظ من حيث ترسل ولكنه في المؤثرات التي تستخدم فيها فان الطفل اول ما يقول (بابا) يستطير بها ابوه فرحا والطفل لم يزل على ان تلفظ باحرف طبيعية لم يبعثه عليها فكر ولا هو تصور لها معنى ولكن اباه كلما تمثل ان يحكيها تنفس قلبه لتلك المحاكاة بالاعتبار الذى ياتيها من الصلة النفسية بين الاب وابنه . وكذلك الشاعر فيما يحاكي من صفات الطبيعة وتشبيهاتها فانه يجيء بها فوق ما هي في ذاتها بما يمت اليها من اسباب الصلة بينها وبين النفوس ، فكأن الشاعر والنفس يتساقطان الحديث فينصت حتى يعي كلامه وتنصت حتى تعي كلامه .

(ولذلك ربما اهتزت النفس للشعر الذي لا يرى فيه الناقد غير لفظ منسجم ومعنى مبذول بل ربما اهتزت من ذلك ايضا لما عسى الناقد ان يجد فيه المغمز ويصيب المقالة ولكن بعض الفاظه تتناول من المعاني ما يذكر النفس باحوال ربما كانت منسية في جانب التصور او كان للنفس فيها شيء من الهوى فتهيمها الذكرى وتنحدر على تلك الالفاظ المنسجمة فتزين معناها البسيط من تصورها بمثل ما يحيط من الوان الافق بالشمس اذا غربت فان نورها الخافت لا يكاد يلقى على تلك الالوان حتى تتناسب جميعها فيكون قرص الشمس كانه لون منها في صفحة السماء وبذلك يخرج عن صورة الجرم المضيء الى هيئة الضياء وتكتسي الشمس من تلك الالوان في نظر المتامل على ما بها من السقم احسن صفات الجمال في الحسن[1])

والرافعي عينه كان بارعا في الاساليب البيانية (له في انشاء (الكتابة) احساس دقيق واحسب لو ان واحدا من اهل البيان اراد ان يتتبع ما اجد الرافعي على العربية من اساليب القول لاخرج قاموسا من التعبير الجميل يعجز عن ان يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الاولين ؛ اذ كان مذهب الرافعي في الكتابة ان يعطي العربية اكبر قسط من المعاني والطيف ثروة جديدة الى اللغة ، وقد بلغ ما اراد[2])

(١) انظر مقدمة ديوان النظرات للرافعي . الجزء الاول

(٢) سعيد العريان . حياة الرافعي وجه ١٨٥

الرافعي الاديب

قال فيلكس فارس (ظهر هذا العبقري بشخصيته الفذة في حقبة من الزمن كان الاديب فيها متلعذا لمدرستين: احدهما مدرسة الادب العربي تحاول انهاض اللغة من كبوتها وقد طالت قرونا فتحصر كل همها في تنميق العبارات وتصحيح المفردات والتخلص من الاسلوب السقيم الذى طغت فيه على البيان السجاع المتحذلق واجتاحته الالفاظ العامية، والاخرى مدرسة الادب الدخيل تغترف من معين الغرب اوشالا تريقها بيانا مقلقلا لا يمت الى العربية الفصحى بسبب وليس فيه من الالفاظ الصحيحة ومتانة الاسلوب ما يقوى على اقتناص روائع التفكير من بيان الاجانب . كان الرافعي في تلك الفترة يخطو خطواته الاولى بعيدا عن المدرسة الثانية متصلا بالمدرسة الاولى بجامع اختيار الالفاظ وتنميق الاسلوب، غير انه ندّ عن هذه المدرسة بارسال نظراته الى اغوار الادب العربي القديم غير واقف عند لامعات الاصداف الطافية على سطوحه [1] ..

هذه صورة ملخصة عن سيرة الرافعي الادبية . فقد اجتاز مرحلتين كان خلال الاولى منهما اقرب الى القديم وكان في الثانية منهما اقرب الى الحديث، غير ان التمادي في هذا التقسيم يوقعنا في خطاء فادح لا سيما وان حياة الانسان ليست شيئا جامدا يمكننا تجزئته بفواصل واضحة وحدود جلية، لانها وحدة دنياميكية لا تتجزأ وان خضعت لقانون التطور . لذلك اقول بوجود رافعيين الاول رجعي والثاني مجدد، مع التحفظ دائما بان هذين الرافعيين هما واحد نراه في المرحلة الثانية يحمل بعض آثار المرحلة الاولى، ونراه في المرحلة الاولى يخفي بعض الشي عن الرافعي المقبل. هما اثنان في واحد هو ذلك الكاتب الذى يحن الى الادب القديم وذلك المفكر الذى يغوص وراء المعاني البعيدة . غير ان تنميق الالفاظ وتجويد السجع هو الذى غلب عليه في المرحلة الاولى ، اما في المرحلة الثانية فقد كان البيان الخلاق طابعه الاقوى . وما لنا في سبيل ذلك الا ان نلقي نظرة على مثل هذا الوصف لنتيقن من نهج الرافعي المسجع واسلوبه الكتابي الموزون واهتمامه بموسيقية الالفاظ بادىء ذى بدء .

الرافعي المقلد . قال يصف الحسن المصنوع (حسناء قد نزعت لون الوردة بخدها وتركت في الوردة الطيب، ومثلت هيف الغصن في قد غير رطيب، وانتحلت دلال الحب ولكن من غير حبيب، فما احسن الوجه وهو روضة مصوره، وزجاجة مزوّرة. وشهادة على الله مزورة ... كيف لا وقد امتاز بين الناس بالقياس وغير القياس، فتلك صور مخلوق اهلها من الطين. وهو لكثرة ما عليه من شبه الدقيق كأنه صورة من العجين. حاجب يكاد يسيل حبرا. وعنق كصفحة الورق. تكاد تكتب فيه الالحاظ بمدامع الحدق. وجسم يميل

(١) الرسالة عدد ٢٥٢ في ٩ مايو سنة ١٩٢٨ السنة السادسة ص ٧٧٧

اذا وقفت عليه طيور النواظر. ويكاد يتعثر اذا رقته اجنحة الخواطر. وربما كان يتحسر عليه علماء الاثار لانه مثال حي بالاحترام. ولا غرو ان يكون لحظة صاحبته من هياكل العظام ... تنظر بعين من الجمود لا يقرا فيها التاويل. ولا يشرح منها التحليل. ويهدى بالعين انها مصباح الروح في طريق الغيوب. تضيء بين الخواطر فينعكس نورها على القلوب. وقد تبدلت الحسناء من همس الحلي بلمس الحلي وهو وهو في حسنها يعلم الله كالمعنى المظلم لانه في غير موضعه. والمنظوم الضائع لان الشعر يعرف من مطلعه. لعل الطبيعة بالغت في مساعدتها على التقليد فاقامت لها الجبال مقام العذال واجرت الانهار في مكان الدموع الغزار. فلم يبق الا الحب الذى تجعل غيضها منه على طرف الانف وفي خيلها عالم من العشاق يعبث فيهم لحظها. ويجيء منهم لفظها على انها لا ترفق بهم. ولا تشفق لكربهم وشكواهم من جورها الى ربهم. فان لم تراهم اهلا لصدقها في الدلال. فالافليس المساكين اهلا لصدقتها في الجمال"(١) وقال يصف الراقصة "من هذه الزهراء كالنار المشبوبة الحسناء كالدمية المنصوبة المشرقة في زينتها كثرة الدينار اللائحة في ضيء ماء الدموع كما يلوح المنار وقد شف قلبها عن الجوى كما يشف الزجاج وتدافعت من طرب الهوى كما تتدافع الامواج وهي ترقص على حركات القلوب وتسترسل في سهولة كانها جسم خلق من الدموع والابصار قائمة على قوامها والنفوس هائمة منها حمامها وما هي في عين الحب الا خطرات الطيف او رقة النسمات الصيف ولا رقصها الا معركة في الحب قام فيها اللحظ مقام السيف."(٢)

وقال ايضا يصف الحب "من هذه الهيفاء التي تستميل ولا تميل، وقد استبدت بالجمال فلا يرى في غيرها شيء جميل، طالعة كالضحى فكل نجمة من ضوئها كاسفة، لا هيبة كالنسيم وفي كل قلب من حبها عاصفة؛ وقد عبدها العشاق باطلا كما يعبد المجوس الشمس، وتمنوا في دلالها المحال كما يتمنى المرء من امس، وكتب عليهم هواها المحتوم جند ما هنالك مهزوم !!"(٣)

لا اشك بان القارئ يرى كيف يكثر الرافعي من السجع. فهو يتوخى الجمل الموزونة دائما. ذلك كان ديدنه في اول الامر يتعمد هذا النسق فتخرج لغته جافة كانه يحتطب الالفاظ احتطابا. لا روعة في وصفه الوجه بالزجاج، فهو تصوير سمج لا ينفع النفس بشيء من الخيال الشفاف الذى اوتيه فيما بعد. وانا لا انكر ان الرافعي يملك لغته الى ابعد حد ممكن في هذه المرحلة الاولى ولكنه لا يملك القوة البيانية العالية. وقد ظلت هذه النزعة التحذلقية مسيطرة عليه بعض الشيء الى اخر ايامه. وهو الشيء الذى دفع طه حسين الى القول "اسلوب الرافعي قديم جدا لا يلائم العصر الذى نعيش فيه..

---

(١) ديوان النظرات الجزء الاول وجه ٩٤
(٢) كتاب المساكين وجه ١٧٧
(٣) كتاب المساكين وجه ١٧٦

واتخاذ هذه الاساليب نقص ادبي لان الكمال الادبي يستلزم ان تكون اللغة ملائمة للحياة وهو نقص خلقي لانه كذب للكاتب على نفسه وعلى معاصريه، وهو نقص من جهة اخرى لانه لا يدل على اقل من ان الكاتب ينكر شخصيته ولا يعترف لها بالوجود. واى انكار للشخصية اشد من ان تحس وتشعر ثم تستحي ان تصف احساسك وشعورك كما تجدهما فتستعير لهذا الوصف اساليب لا تلائمه وضروبا لا تؤديه (١)

واليك بهذه الرسالة التي سار فيها الرافعي على طريقة قديمة في اواخر عمره قال يصف صديقا له تفتر في الرد عليه .. ((وانتظرت رد خطابه وان تلقى الي ورقة من شجرة عتابي فما زالت تنقطع الساعة من الساعة ويلتقي اليوم باليوم ويذهب اللوم الى العتاب ويجيء العتاب الى اللوم وكتابك على ذلك كانه الذهول ثم اليقظة او السهد يقظة النوم ... لسبحان من علم ادم الاسماء كلها لينطق بها وعلمك وحدك السكوت ... والسلام عليك ! في ازلية جفانك، اما انا فاقول والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ما هذا يا سيدى وليس خيط العمر في يدك ولا امس الضائع بمعوض علي من غدك ولا انا اقل من (انا) ولا انت اكثر من (انت) ولا اعلمتنا من قبل انك مع القدر تحركت ومع القدر سكنت اتراك لما حفت الحاكم في قتلي جعلت تقتل بهجرك ايامي ولما عرفت انك من سروري اردت ان اعرف انك من الامي ام انت في نورك وظلامك تفعل ما يفعل الليل والنهار لم اغراك بنا ذلك الذى قال خلقته من طين وخلقتني من نار لم تحسبنا خلقنا بهذه الرقة لتعرف كيف يتحجر قلبك ويجمد وابتنا الله في هذا العمر لتجيء انتا يا صاحب العزة فتحسد لم خلقت في يد الله ارادة ماضية وخلقنا عليك اتكالا وجئنا على الطاعة شكلا واحدا وجئت انت من يد الله اشكالا .

ان كان قلبك كل شيء غير القلوب فما نحن شيء غير الناس وان كنت هندسة وحدها في بناء الحب فما خلقت ايامنا في طولها وقصرها للقياس وهب قلبك في هذه لهندسة مربعا افلا يسعنا ضلع من اضلاع او مدورا افلا يمسكنا محيطه في انخفاضه وارتفاعه وهبه مثلثا فاجعلنا منه في الزاوية او مستطيلا فدعنا نمتد معه ولا الى حين ناحية . ما بال كتابنا حفظك الله يمضي سؤالا فيبقى عندك بلا جواب ونبنيه على حركة القلب فتجعله انت مبنيا على السكون ولا محل له من الاعراب وما بالنا نقطع في انتظار الرد مسافة من هجرك لو طار فيها البريد لا نتهى بكتب الحسنات والسيئات الى السماء ولا جاس خلال الارض لتقدم حتى لا يبقى امام وتاخر حتى لا يبقى وراء فان كنت تظن ان لم توجه الينا من عرشك خطابا او تنزل علينا من سمائك كتابا فقد اقفل باب النبوة من قبلنا فما هذا الباب واحتجب الوحي من زمن بعيد فما هذا الحجاب .

(١) حديث الاربعاء الجزء الثالث وجه ١٢

لعلك تخشي اذا جاءتني كتابك الكريم ان يزعم الناس ان جبريل اصبح في الارض من سعاة البريد وان السماء عادت تشرع لهذه الارض ل فجاءتها بكلا بكتاب جديد لم لعلك تخاف ان تكتب بقلمك الاعلى ان يتحجل على الناس قدر لا يحتمل التاجيل وان انتهى الى كتابك قامت قيامة اوربا على مصر لان عندى صفحة ناقصة من الاناجيل . . . لقد هممت ان اعقب القلم الذى كتبت به اليك فاحطم سنك واجعله من ناحية في خبر كان حتى لا يبقى من ناحيتك في خبر انه وقلت كيف ويحك سود ت وجه صحيفتي بما هو في سواده مداد خم المداد وفي نفسه سواد غير السواد . فقال وهل انا في هذه النغمة الا عود وهل كنت الا حركة الفاظك من قيام وقعود وسل الدواة من امدها والصحيفة من امدها وسل اناملك كيف كانت تضغط عليّ كانها تسلني سلاما ولا تحط كلاما وسل نفسك كيف كا نت في حركتي تضطرب وقلبك كيف كان من كلمة يبتعد وفي كلمة يقترب فما تدرى يا سيدى وقد احببناك انعدك في ذنوب الزمان ام في اعذاره ونأخذك في الحب من وقائعه ام في الجفاء من اخباره فان ابيت ان تكون منا الا سماء من ارضها وان نكون منك الا سنة من فرضها وابيتا وانت مفرد الحسن الا ان نعدك مع كبريائك مثنى بالف ونون والا ان تكون كما اردت ان تكون فاذا خاطبناك قلنا يايها الصديقان . . . ويا غضبانان وراضيان وانشدنا ولو كان هما واحد ا . . . ولكنه هم وثان وان ابيت الا ما تابى ولم ترض مع صدقنا في حبك الا كذبا قلنا لك بلغة الياس من لشد ما اصاب الزمان فيظ واخطاء فيلصب بك او فليخطئ وكثيرا ما اعطانا الدهر واخذ فالتكن فيما يأخذ وقلنا مع الذكر نسيان وما عسى ان ينقص الناس بانسان ومن ظن بصرفنا عن نفسه انه كبير جعلناه (من نحونا) في باب التصغير وصلنا اصلحك الله لا يتكلم الا بفائدة ولا يسكت الا لفائدة فان اخطانا معك في واحدة اصلحناها بواحدة والسلام " (1)

هذه هي النزعة التي اطل بها على الشعب وقد ظلت متمسكة به بعض الشيء حتى اخر حياته ، فانطبع في ذهن الناس عن الرافعي صورة رجل رجعي متقعر في اللغة ، فنفر منه القراء نفورا شديدا . وقد كان لهذا التأثير فعل قوي في تكييف الاحكام التي اطلقت عليه فيما بعد . وعندما انتقل الى المرحلة الثانية من حياته الادبية حيث ابدع ببيانه ظل الناس يعتقدون ان الرافعي هو كاتب الاسلوب القديم .

---

(1) ذكرت هذه الرسالة في اول كتاب حديث الاربعاء الجزء الثالث للدكتور طه حسين

الـرافعـــي المجــــــد د .

قضى الرافعي الشطر الاكبر من حياته موظفا في الحكومة دون ان يحتك بالادباء والناس ليعرف اراءهم فيما يكتبون، وكانت نزعته الدينية، لا سيما طرشه، تدفع به الى الابتعاد عن المجتمع ليلج عالما نسجه بنفسه لنفسه هو عالم الاقدمين. ولما كان اطلاعه على الاداب الغربية ضئيلا جدا فقد اكتفى بما قاله الاقدمون مبنى ومعنى، ولكنه ما عتم ان نزل الى ميدان الصحافة بدعوة من صاحب (الرسالة)، فتغلغل اذ ذاك في البيئات وتلمس حاجات الناس وشعر بنبضاتهم وسمع ما قيل عنه . حينئذ بدأ يماشي ذوق الشعب في انشائه. ومن هنا نرى الرافعي ينتقل من الماضي ليخلق مدرسة جديدة. والغريب في ذلك الانتقال ان قدميه لم تطأ الحاضر بل شطح دفعة واحدة من القديم المتحذلق الى المستقبل الرمزي. وهكذا ظل مجهولا في مرحلتيه المتعاقبتين مبهما عند الناس. ففي الاولى كان متاخرا عن زمانه وفي الثانية كان سباقا على زمان الناس. وهكذا لم يُدرَك في جاهليته ولم يُفهَم في رمزيته. لذا ظل الرافعي ذاك الاديب المجهول. فاذا قرئ في كتبه التي الفها وهو بعد في برجه الجاهلي قيل عنه (وكل ما نريده لهذه اللغة هو ان تسلك سبيلها في الحياة والاستحالة دون ان يحول بينها وبين ذلك الاسلوب قديم كاسلوب الرافعي)[1] واذا قرئ في كتبه الرمزية الحديثة الاسلوب نسب اليه الغموض والاغراب والتعقيد (اللهم اني لا افهم شيئا ... فان الذين يريدون ان يروضوا انفسهم على الطلاسم واقتحام الصعاب وتجشم العظائم من الامور يستطيعون ان يجدوا في كتاب الرافعي ما يريدون ... اعترف باني عاجز عن ان اتي بكتاب ككتاب الرافعي او بفصل كفصل الرافعي لان الله لم يرد ان اكون غامضا غموض الرافعي)[2].

ان مقالات الرافعي في (الرسالة) تمثل لنا بوضوح ذاك الشطر الثاني من حياته الذى رجع فيه عن الكد وراء السجع، وهذا كان مجددا في بيانه الرمزي. هذا مع القول بان الرافعي لم يقتلع يوما من الايام عن الاعتناء بالجملة العربية الصحيحة فهو يكتب باسلوب قوي وعبارة متماسكة ساعيا من وقت الى اخر وراء السجع المستحب الذى ياتي عفو الخاطر. والرافعي اذا وصف شيئا يريك ما يصفه لعظم الدقة في ملاحظته الصور التي تمر امامه ورسمها بطريقة يدخلك الى صميمها دخولا مباشرا فاسمعه مثلا كيف يصف

---

(١) حديث الاربعاء الجزء الثالث كلام طه حسين وجه ١٤

(٢) كلام طه حسين في حديث الاربعاء الجزء الثالث وجه ١٤٢

٥١

رجلا جاحظ العينين قال (ولما فرغت من طوافي على دور الصحف جاءت هي تطوف بي في نوبي فرأيتني ذات ليلة ادخل احداها لاهدي (وحي القلم) الى الاديب المتخصص فيها للكتابة الادبية ودلوني عليه فاذا رجل مربوع مشوه الخلق صغير الراس دقيق العُنق جاحظ العينين ت تدوران في محجريهما دورة وحشية كانما رعبته الحياة مذكان جنينا في بطن امه لانه خلق للاحساس والوصف اوكانما ركب فيه هذا النظر الساخر ليرى اكثر مما يرى غيره من اسرار السخرية فينبغ في فنونها او هو قد خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الالهية بانه رجل قد ارسل لتدقيق النظر)(١) وللرافعي مقدرة غريبة في وصف الحيوانات ينطقها شاعرة واعية ما يجول في خاطرها كانها آدميات تعقل وتحس فهو يرفع عنها ستار جلدتها ليكشف اعاميق شعورها ويفك عقدة بكمها ببيان اخاذ وروعة ما بعدها روعة في الانشاء فاسمعه يصف الاسد في مقالته الاسد قال: (وكان الاسد الذى اختاروه للشيخ اغلظ ما عندهم، جسيما، ضاريا، عارم الوحشية، متزيل العضل شديد العصب الخلق، هراسا، فراسا، اهرت الشدق يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبئك ان جوفه مقبرة ويظهر وجهه خارجا من لبدته، يهم ان ينقذف على من براه فيأكله! واجلسوا الشيخ في قاعة واشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من اعلاه فجذبوه فارتفع؛ وهجهجوا بالاسد يزجرونه، فانطلق يزمجر ويزأر زئيرا تنشق له المرائر، ويتوهم من يسمعه انه الرعد وراءه الصاعقة! ... ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعر، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة، فما بقي من اجل الشيخ الا طرفة عين؛ ورايناه على ذلك ساكنا مطرقا لا ينظر الى الاسد ولا يحفل به، وما منا الا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والاشفاق على الرجل .

(ولم يرعنا الا ذهول الاسد عن وحشيته، فاقعى على ذنبه، ثم لصق بالارض هنيهة يفترش ذراعيه، ثم نهض نهضة اخرى كانه غير الاسد، فمشى مترفقا ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته، واقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذى يانس به، وكانه يعلن ان هذه ليست مصاولة بين الرجل التقي والاسد، ولكنها مبارزة بين ارادة ابن طولون وارادة الله ... وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمي عمل، ولم يكن منه بازاء لحم ودم فلو اكل الضوء والهواء والحجر والحديد، كان ذلك اقرب وايسر من ان ياكل هذا الرجل المتمثل في روحانيته لا يحس لصورة الاسد معنى من معانيها الفاتكة، ولا يرى فيه الا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التي هو مؤمن بها ومتوكل عليها، كحياة الدودة والنملة وما دونهما من الهوام والذر ...!

---

(١) وحي القلم الجزء الثالث وجه ٢١٦

(وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه تعالى، فهو ليس بين يدى الاسد ولكنه هو الاسد بين يدى الله،وكان مندمجا في يقين هذه الاية «واصبر لحكم ربك فانك باعيننا»)!

ورأى الاسد رجلا هو خوف الله،فخاف منه،وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة،خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية،فليس في الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة،ومن ذلك ليس في الاسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة،ونسى الشيخ نفسه فكأنما رأى الاسد ميتا ولم يجد فيه (انا) التي اكلها،ولو ان خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة او اختلجت في نفسه خالجة من الشك،لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الاسد فتمزق في انيابه ومخالبه .

(قال وانصرفنا عن النظر في السبع الى النظر في وجه الشيخ،فاذا هو ساهم مفكر،ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظنا في تفكيره،فمن قائل انه الخوف اذهله عن نفسه،وقائل انه الانصراف بعقله الى الموت،وثالث يقول انه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب،وزعم جماعة ان هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الاسد؛ واكثرنا في ذلك وتجارينا فيه،حتى ساله ابن طولون: ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر؟ .

فقال الشيخ لم يكن علىّ باس،وانما كنت افكر في لعاب الاسد، اهو طاهر ام نجس. .. »[1]

ارايت الرافعي كيف يسمو بعبقريته الادبية؟ كيف يمتزج بدقائق الاشياء فيجعلها تدرك وتشعر؟ وكيف يكون واقعيًا بمثاليته اذ يصفها لنا كما كانت تريد ان تكون او يجب ان تكون؟ تلك هي واقعية المثالية او مثالية الواقع،وفي ذلك سر من اسرار العبقرية الادبية. واسمعه ايضا كيف يصف هرين احدهما هزيل والآخر سمين قال ... «كان القط الهزيل مرابطا في زقاق،وقد طارد فارة فانحجرت في شق، فوقف المسكين يتربص بها ان تخرج ، ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزها؛ وما عقل الحيوان الا حرفة عيشه لا من غيرها؛ وكان القط السمين قد خرج من دار اصحابه يريد ان يفرج عن نفسه بان يكون ساعة او بعض ساعة كالقطط بعضها مع بعض،لا كالاطفال الناسعة اهليهم وذوى عنايتهم، وابصر الهزيل من بعيد فاقبل يمشي نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتامله وهو يتخلع تخلع الاسد في مشيته،وقد ملأ جلدته من كل اقطارها ونواحيها، وسطته النعمة من اطرافه، وانقلبت في لحمه غلظا، وفي عصبه شدة، وفي شعره بريقا، وهو يموج في بدنه من قوة وعافية، ويكاد اهابه ينشق سمنا وكدنة؛ فانكسرت نفس الهزيل، ودخلته الحسرة ، وتضعضع لمرآى هذه النعمة مرحة مختالة؛ واقبل السمين حتى وقف عليه، وادركته الرحمة له، اذ رآه نحيفا متقبضا، طاوى البطن، بارز الاضلاع، كانما همت عظامه ان تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر .

فقال له: ماذا بك؟ ومالي اراك متيبسا كالميت في قبره غير انك لم تمت؟ ومالك اعطيت الحياة غير انك لم

---

[1] وحي القلم الجزء الثالث وجه ٥٦

لم تحي؟ او ليس الهر منا صورة مختزلة من الاسد ،فمالك - ويحك - رجعت صورة مختزلة من الهر؟ افلا يسقونك اللبن، ويطعمونك الشحمة واللحمة، وياتونك بالسمك، ويقطعون لك من الجبن ابيض واصفر، ويفتون لك الخبز في المرق ويوثرك الطفل ببعض طعامه، وتدللك الفتاة على صدرها، وتمسحك المرأة بيديها، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه؟ وما لجلدك هذا مغبرا كانك لا تلطعه بلعابك، ولا تتعهده بتنظيف، وكانك لم تر قط فتى او فتاة يجرى الدهان بريقا في شعره او شعرها، فتحاول ان تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما؛ واراك متزايل الاعضال متفككا حتى ضعفت وجهدت، كانه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك، ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك، وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشية ولا وسادة ولا بساطا ولا طرازا، وما اشبهك باسد اهلكه الا يجد الا العشب الاخضر والهشيم اليابس،فما له لحم يجيء من لحم، ولا دم يكون من دم، وانحط فيه جسم الاسد، وسكنت فيه روح الحمار ..!

(قال الهزيل: وان لك لحمة وشحمة، ولبنا وسمكا، وجبنا وفتاتا؟ وانك لتقضي يومك تلطع جلدك ماسحا وغاسلا، او تتطرح على الوسائد والطنافس نائما ومتمددا؟ اما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معا، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة، واحكمت طبعا وانقضت طباعا، وربحت شبعا وخسرت لذة؛ عطفوا عليك وافقدوك ان تعطف على نفسك، وحملوك واعجزوك ان تستقل،وقد صرت معهم كالدجاجة: تُسمّن لتذبح ،غير انهم يذبحونك دلالا وملالا . انك لتاكل من خوان اصحابك، وتنظر اليهم ياكلون، وتطمع في مؤاكلتهم؛ فتشبع بالعين والبطن والرغبة، ثم لا شيء غيرُهذا ؛ وكانك مرتبط بحبال من اللحم تاكل منها وتحتبس فيها . ان كان اول ما في الحياة ان تاكل، فاهون ما في الحياة ان تاكل؛ وما يقتلك شيء كاستواء الحال، ولا يحييك شيء كتفاوتها؛ والبطن لا يتجاوز البطن ، ولذته لذته وحدها؛ ولكن اين انت عن ارثك من اسلافك، وعن العلل الباطنة التي تحركنا الى لذات اعضائنا، ومتاع ارواحنا، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الاكبر، وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله ،لا من قبل المعدة وحدها ..؟

(قال السمين - تالله لقد اكسبك الفقر حكمة وحياة، واراني بازائك معدوما بزوال اسلافي مني، واراك بازائي موجودا بوجودهم فيك؛ ناشدتك الله الا ما وصفت لي هذه اللذات التي تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الاصغر من الشبع، وتستطيل بها الى مرتبة الوجود الاكبر من الرضي؟

فقال الهزيل انك ضخم، ولكنك ابله، اما علمت ويحك ان المحنة في العيش هي فكرة وقوة، وان الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة، وان لهفة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب، وسعار الجوع هو الذى يجعل في الطعام من العادة طعاما آخر من الروح، وان ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوضك منه الشحمة واللحمة فان رغباتنا لا بد لها ان تجوع وتغتذي كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا، ليوجد كل منهما حياته في الحياة؛ والامور المطمئنة كهذه التي انت فيها هي للحياة امراض مطمئنة، فان لم تنقص من لذتها فهي لن تزيد في لذتها، ولكن مكابدة الحياة زيادة في الحياة نفسها. وسر السعادة ان تكون فيك القوى الداخلية التي تجعل الاحسن احسن مما يكون، وتمنع الاسوأ ان يكون اسوا مما هو؛ وكيف لك بهذه القوة وانت وداع قار محصور من الدنيا بين الايدي والارجل؟ انك كالاسد في القفص، صغرت اجمته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصا يحده ويحبسه، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى اصبح حركة في جلد؛ اما انا فاسد على مخالبي ووراء انيابي، وغيضتي ابدا تتسع ولا تزال تتسع ابدا، وان الحرية لتجعلني اتشمم من الهواء لذة مثل لذة الطعام، واستروح من التراب لذة كلذة اللحم، وما الشقاء الا خلتان من خلال النفس؛ اما واحدة فان يكون في شرهك ما يجعل الكثير قليلا، وهذه ليست المثلي ما دمت على حد الكفاف من العيش؛ واما الثانية فان يكون في طمعك ما يجعل القليل غير قليل، وهذه ليس لها مثلي ما دمت على ذلك الحد من الكفاف؛ والسعادة والشقاء كالحق والباطل؛ كلها من قبل الذات، لا من قبل الاسباب والعلل؛ فمن جاراها سعد بها، ومن عكسها عن مجراها فيها يشقى.

ولقد كنت الساعة أختل فأرة انجحرت في هذا الشق، فطعمت منها لذة وان لم اطعم لحما، وبالامس رماني طفل خبيث بحجر بريد عقرى فاحدث لي وجعا، ولكن الوجع احدث لي الاحتراس، وساغشى الآن هذه الدار التي بازائنا فهي غاية لذة في السلة والخطفة والاستراق والانتهاب، ثم الوثب شدا بعد ذلك؟ هل ذقت انت بروحك لذة الفرصة والنهزة، او وجدت في قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة او جرذ، او ادركت يوما فرحة النجاة بعد الروغان من عابث او باغ او ظالم؟ هل نالتك لذة الظفر حين هولك طفل بالضرب، فهولته انت بالعض والعقر، ففر عنك منهزما لا يلوى ...؟

قال السمين = وفي الدنيا هذه اللذات كلها وانا لا ادرى؟ هلم اتوحش معك، ليكون لي مثل نكرك ودهائك واحتيالك، فيكون لي مثل راحتك المكدودة، ولذتك المتعبة، وحركك المحكم عليه منك وحدك؛ وساتصدى معك للرزق اطارده واواثبه، واغاديه وو...

وتحركه

فاراوحد

فقطع عليه الهزيل وقال = يا صاحبي، ان عليك من لحمك ونعمتك علامة اسرك، فلا يلقانا اول طفل الا اهوى وك فاخذك اسيرا، واهوى علي بالضرب لانطلق حرا، فانت على نفسك بلاء، وانت بنفسك بلاء علي. وكانت الفأرة التي انحجرت قد رات ما وقع بينهما، فسرها اشتغال الشر بالشر، وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة؛ فوثبت وثبة من ينجو بحياته، ودخلت في باب مفتوح؛ ولمحها الهزيل كما تلمع العين برقا اومض وانطفأ، فقال للسمين: اذهب راشداً، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة، ان الوقوف معك ساعة هو ضياع رزق، وكذلك امثالك في الدنيا، هم بالفاظهم في الاعلى ومعانيهم في الاسفل» (١)

هكذا يبدع الرافعي مرتفعا الى فوق ودائما الى فوق. فهو يجعل من الفن الكتابي نشاطا في الباطن يمتزج بمحض الشيء مداخلا اسراره متحدا بكيانه ليصبحه الى حد ما، ورسالة الاديب تقوم على ان يرى مجاز الشيء لا الشيء ذاته، ويقدره من داخله هو، ليرينا ما كان بامكان هذا الشيء ان يقوله لو خلق له لسان ينطق وعقل يدرك. فاسمعه ايضا كيف يصف الخروفين ...

«اجتمع ليلة الاضحى خروفان من الاضاحي في دارنا، اما احدهما فكبش اقرن يحمل على رأسه من قرنيه العظيمين شجرة السنين، وقد انتهى سمنه حتى ضاق جلده بلحمه، وسح بدنه بالشحم سحّاً، فاذا تحرك خلته سحابة يضطرب بعضها في بعض، ويهتز شيء منها في شيء؛ وله وافرة يجرها خلفه جرا، فاذا رايتها من بعيد حسبتها حملا يتبع اباه؛ وهو اصوف قد سبغ صوفه واستكثف وتراكم عليه؛ فاذا مشى تبختر فيه تبختر الغانية في حلتها، كانما يشعر مثل شعورها انه يلبس مسرّات جسمه لا ثوب جسمه؛ وهو من اجتماع قوته وجبروته اشبه بالقلعة، يعلوها من هامته كالبرج الحربي فيه مدفعان بارزان؛ وتراه ابدا مصعرا خده كانه امير من الابطال، اذا جلس حيث كان شعر انه جالس في امره ونهيه، لا يخرج احد من نهيه ولا امره. واما الاخر فهو جذع في راس الحول الاول من مولده. لم يدرك بعد ان يضحي، ولكن جيء به للقوم الى لحمه الغض؛ فالاول اضحية وهذا اكولة؛ وذاك يتصدق بلحمه كله على الفقراء، وهذا يتصدق بثلثيه ويبقى الثلث طعاما لاهل الدار. وكان في لينه وترجرجه وظرف تكوينه ومرح طبعه كانما يصور لك المرأة انسة رقيقة متوددة، اما ذاك الضخم العاتي المتجبر الشامخ، فهو صورة الرجل الوحشي اخرجته الغابة التي تخرج الاسد والحية وجذوع الدوحة الضخمة، وجعلت فيه من كل شيء منها شيئا يخاف ويتقى.

(وكان الجذع يثغو لا ينقطع ثغاؤه، فقد اخذ من قطيعه انتزاعا فاحس الوحشة وتنبهت فيه غريزة الخوف من الذئب فزادته الى الوحشة قلقا واضطرابا؛ وكان لا يستطيع ان ينفلت، فهو كانما يهرب في الصوت ويعدو فيه عدوا. اما الكبش فيرى مثل هذا مسبة لقرنيه العظيمين، وهو اذا كان في القطيع كان كبشه وحاميه والمقدم فيه، فيكون القطيع معه وفي كنفه ولا يكون هو عند نفسه مع القطيع؛ فاذا فقد

(١) وحي القلم الجزء الاول وجه ٤٤

جملته لم يكن في منزلة المنتظر ان يلحق بغيره ليلحق به فيقلق ويضطرب، ولكنه في منزلة المرتقب ان يلحق به غيره طلبا لحمايته وذماره ، فهو ساكن رابط الجاش مرتبط النفس ، كانما يتصدق بالانتظار »(١) ~~وقد يعتقد القارئ~~ وقد يعتقد القارىء ان الرافعي لا يبدع مثل هذا الابداع الا في وصفه الحيوانات، فاسمعه اذن كيف يصف مجلة «المقتطف شيخ مجلاتنا ؛ كلهن اولاده واحفاده؛ وهو كالجد الاكبر؛ زمن يجتمع، وتاريخ يتراكم، وانفراد لا يلحق، وعلم يزيد على العالم بانه في الذات التي تفرض اجلا لها فرضا وتجب لها الحرمة وجوبا ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق . وهل الجد الا ابوة فيها ابوة اخرى، وهل هو الا عرش حي درجاته الجيل تحت الجيل، وهل هو الا امتداد مسافاته العصر فوق العصر؟ والمقتطف يكبر ولا يهرم، ويتقدم في الزمن تقدم المخترعات ماضية بالنواميس الى النواميس، مقيدة بالبداء الى الغاية؛ وهو كالعقل المنفرد بعبقريته؛ واجبه الاول ان يكون دائما الاول؛ فلقد انشىء هذا المقتطف وما في المجلات العربية ما يغني عنه، ثم طوى في الدهر سبعة وثمانين مجلدا اقامها سبعة وثمانين دليلا على ان ليس ما يغني عنه؛ ثم اسفّت الدنيا حوله باخلاقها وطباعها، وتحولت مجلات كثيرة الى مثل الراقصات والمغنيات والممثلات، وبقي هو على وفائه لمبدئه العلمي والسمو فيه وللسمو به، كانما اخذ عليه في العلم والادب ميثاق كميثاق النبيين في الدين والفضيلة؛ فبين يديه الواجب لا الغرض، وهمه الابداع بقوى العقل لا الاحتيال بها، وهديه الحقيقة الثابتة في الدنيا لا الاحلام المتقلدة بهذه الدنيا، وطريقه في كل ذلك طريق الفليسوف، من هدوء نفسه لا من احوال الدهر، فهو ماضٍ على اليقين، نافذ الى الثقة، متنقل في منزلة من يقينه الى ثقته ومن ثقته الى يقينه ..»(٢)

ثم يعتلي الرافعي الى درجة من الرمزية اقول عنها انه يساوى بها اعاظم بيانيي الغرب . وقد تنبه الى ذلك فيلكس فارس بقوله عن (رؤية في السماء) «هذه قطعة ان وجدت لها مثيلا من حيث الفن بين ما كتب اشهر الرمزيين من ابناء الغرب فانك لن تجد ما يشبه روعة بيانها ولا اشراق الهامها، وقد تلألأت في سطورها من الاحاديث الشريفة ومن حكم السلف

(١) وحي القلم الجزء الاول وجه ٤٩ .
(٢) وحي القلم الجزء الثالث وجه ٤٢٠ .

ما يدفع بك وانت تتلوها الى السجود كانك تصلي باصوات القبور المتعاليه من خفايا فطرتك واعماق روحك "(١) .... ومنذ سنتين او اكثر شغفت بمطالعة (رسالة) الاستاذ الكبير احمد حسن الزيات بعبقرية هذا المفكر المجدد وحسن اختياره، وفي احد اعداد (الرسالة) قرأت (رؤيا في السماء) للرافعي فكنت كلما قرأت سطرا بعد سطر احسبني اشهد احلاما غائرة في سريرتي تنقلب اشباحها حقائق ماثلة لعياني، وما اتيت على اخر المقال حتى هتفت قائلا : هذا هو مثال الادب العربي الذى يمكننا ان نواجه به الاداب العالمية في نهضتنا (٢) واجد نى مضطرا في مثل هذا الموقف الى الاتيان بامثلة من رؤيا في السماء شاهدة على كلام فليكس فارس "ورايت في نومي كانها القيامة وقد بعث الناس، وضاقهم المحشر، وانا في جملة الخلائق، وكاننا من الضغطة حب مبثوث بين حجرى الرحى، هذا والموقف يغلي بنا غليان القدر بما فيها، وقد اشتد الكرب وجهدنا العطش، حتى ما منا ذو كبد الا وكأن الجحيم تتنفس على كبده، فما هو العطش بل هو السعار وللهب يحتدم بهما الجوف ويتاجج. فنحن كذلك اذا ولدان يتخللون الجمع الحاشد، عليهم مناديل من نور، وبايديهم اباريق من فضة واكواب من ذهب يملئون هذه بسلسال برود عذب، رؤيته عطش مع العطش حتى ليتلوى من رآه من الالم ويتلعلع كانما كوى به على احشائه، وجعل الولدان يسقون الواحد بعد الواحد، ويتجاوزون من بينهما، وهم كثرة من الناس وكانما الجمع في البحث عن اناس باعيانهم، ينضحون غليل اكبادهم بما في تلك الاباريق من روح الجنة وماثها ونسيمها. ومر بي احدهم، فمددت اليه يدي وقلت "اسقني فقد يبست واحترقت من العطش"

قال "ومن انت، قلت ابو خالد الاحول الزاهد. قال الك في اطفال المسلمين ولد افترطه صغيرا فاحتسبته عند الله، قلت لا. قال الك ولد كبر في طاعة الله، قلت لا. قال الك ولد نالتك منه دعوة صالحة جزاء حقك عليه في اخراجه الى الدنيا، قلت لا . قال الك ولد من غير هؤلاء ولكنك تعبت في تقويمه وقمت بحق الله فيه؟ قلت يرحمك الله! اني كلما قلت له "لا" احسست (لا) هذه تمر على لساني كالمكواة الحامية. قال فنحن لا نسقي الا اباءنا تعبوا لنا في الدنيا فالبوم نتعب لهم في الآخرة، وقدموا بين يديهم الطفولة وانما قدموا السنة طاهرة للدفاع عنهم في هذا الموقف الذى قامت فيه محكمة الحسنة والسيئة، وليس هنا بعد السنة الانبياء اشد طلاقة من السنة الاطفال، فما للطفل معني من معاني اثامكم يحتبس فيه لسانه او يلجلج به.

قال ابو خالد فجن جنوني وجعلت ابحث في نفسي عن لفظة ابن، فكانما مسحت الكلمة من حفظي كما مسحت من وجودي وذكرت صلاتي وصيامي وعبادتي فما خطرت في قلبي حتى ضحك الوليد ضحكا وجدت في معناه بكائي وندمي وخيبتي، وقال ياويلك! اما سمعت ان من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ويكفرها الغم بالعيال.

(١) الرسالة عدد ٢٥٤ في ١٦ مايو سنة ١٩٣٨ السنة السادسة وجه ٨٢٠
(٢) " " ٢٥٢ " ٩ " " " " " " ٧٧٦

اتعرفني من انا يا ابو خالد ؟

٤١

قلت: من انت يرحمنا الله بحوك؟

قال انا ابن ذاك الرجل الفقير المعيل الذى قال لشيخك ابراهيم بن ادهم العابد الزاهد طوبى لك! فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة. فقال له ابراهيم لروعة تنالك بسبب العيال افضل من جميع ما انا فيه. وقد جاهد ابي جهاد قلبه وعقله وبدنه وحمل على نفسه من مقاساة الاهل والولد حملها الانساني العظيم وفكر لغير نفسه واغتم لغير نفسه وعمل لغير نفسه وآمن وصبر ووثق بولاية الله حين تزوج فقيرا وبضمان الله حين اعقب فقيرا. فهو مجاهد في سبل كثيرة لا في سبيل واحدة كما يجاهد الغزاة: هؤلاء يستشهدون مرة واحدة اما هو فيستشهد كل يوم مرة في همومه بنا، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته ايانا في الدنيا. اما بلغك قول ابن المبارك وهو مع اخوانه في الغزو «اتعلمون عملا افضل مما نحن فيه» قالوا ما نعلم ذلك. قال انا اعلم. قالوا فما هو. قال رجل متعفف على فقره ذو عائلة قد قام من الليل فنظر الى صبيانه نياما متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه فعمله افضل مما نحن فيه» يخلع الاب المسكين ثوبه على صبيته ليدفئهم به ويتلقى بجلده البرد في الليل! ان هذا البرد - يا ابا خالد - تحفظه له الجنة هنا في حر هذا الموقف كانها مؤتمنة عليه الى ان تؤديه وان ذلك الدثار الذى شمل اولاده يا ابا خالد هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الاب المسكين. قال ابو خالد وبهم الوليد ان يمضي ويدعني. فما املك نفسي فامد يدي الى الابريق فانشطه من يده، فاذا هو يتحول الى عظم ضخم قد نشب في كفي وما يليها من اسلة الذراع فغابت فيه اصابعي فلا اصابع لي ولا كف وابى الابريق ان يسقيني وصار مثلة بي وتجسدت هذه الجريمة لتشهد علىّ فاخذني الهول والفزع وجاء ابريق من الهواء فوقع في يد الوليد فتركني ومضى. وقلت لنفسي ويحك يا ابا خالد! ما اراك الا محاسبا على حسناتك كما يحاسب المذنبون على سيئاتهم فلا حول ولا قوة الا بالله. وبلغتني الصيحة الرهيبة اين ابو خالد الاحول الزاهد العابد. قلت هانذا قبل طاووس من طواويس الجنة قد حص ذيله فضاع احسن ما فيه! اين ذيلك من اولادك؟ واين محاسنك فيهم؟ اخلقت لك المراة لتتجنبها، وجعلت نسلَ ابويك لتتبرا انت من النسل؟ جئت من الحياة باشياء ليس فيها حياة؛ فما صنعت للحياة نفسها الا ان هربت منها، وانهزمت عن ملاقاتها؛ ثم انت تامل جائزة النصر على هزيمة! عملت الفضيلة في نفسك ونشاتك، ولكنها عقمت فلم تحمل بك. لك الف الف ركعة، ومثلها سجدات في النوافل، ولخير منها كلها ان تكون قد خرجت من صلبك اعضاء تركع وتسجد . قتلت رجولتك، ووأدت فيها النسل، ولبثت طوال عمرك ولدا كبيرا لم تبلغ رتبة الاب! فلئن اقمت الشريعة لقد عطلت الحقيقة"(١)

---

(١) وحي القلم الجزء الاول ٢٢٩

ويرتفع الرافعي اكثر فاكثر برمزيته الى قمة يناطح بها الغيب، فاذا به شيخ من شيوخ البيانيين العاليين. فاسمعه يصف الراقصة لعوب حسنة الدل، مفاكهة مداعبة، تحيي ليلها راقصة مغنية، حتى اذا اعتدل الليل ليمضي وانتبه الفجر ليقبل — انكفأت الى دارها فنضت وشيها وجردت من زينتها، وخلعت روحا ولبست روحا، وقالت: اللهم اليك، ولبيك اللهم لبيك!

ثم ذهبت فتوضأت وافاضت النور عليها، وقامت بين يدي ربها تصلي! هي حسناء فاتنة، لو سطع نور القمر من شيء في الارض لسطع من وجهها، وما تراها في يوم الا ظهرت لك احسن مما كانت؛ حتى لتظن ان الشمس تزيد وجهها في كل نهار شعاعة ساحرة، وان كل فجر يترك لها في الصبح بريقا ونظرة من قطرات الندى. وتحسب ان لها دما يطعم فيما يطعم انوار الكواكب، ويشرب فيما يشرب نسمات الليل . واذا كانت في وشيها وتطاريفها واصباغها وحلاها، لم تجدها امرأة، ولكن جمرة في صورة امرأة؛ فلها نور وبصيص ولهب، وفيها طبيعة الاحراق. ان الذي وضع على كل جمال ساحر في الطبيعة خاتم رهبة، وضع على جمالها خاتم قرص الشمس . فاذا رأيتها بتلك الزينة في رقصها وتثنيها، قلت: هذه روضة مفتنة اشتهت ان تكون امرأة فكانت، وهذا الرقص هو فن النسيم على اغصانها . وهي حين تنفذ الى البقعة المجدبة من نفسك انشأت في نفسك الربيع ساعة او بعض ساعة . وتنسجم انغام الموسيقى في رشاقتها نغمة الى حركة؛ لان جسمها الفاتن الجميل هو نفسه انغام صامتة تسمع وترى في وقت واحد معا، وتنسكب روحها الظريفة بين الرقص والموسيقى، لتخرج لك بظرفها صراحة الفن من ابهامين كلاهما يعاون الآخر . وهي في رقصها انما تفسر بحركات اعضائها اشواق الحياة وافراحها واحزانها، وتزيد فيها لغة الطبيعة لغة جسم المرأة . وكأن الليل والنهار في قلبها؛ فهي تبعث للقلوب ماشاءت ضوءا وظلمة . وهي الى القصر، غير انك اذا تأملت جمالها وتمامها حسبتها طالت لساعتها. والى النحافة غير انك تنظر فاذا هي رابية كأن بعضها كان مختبئا في بعض، ويخيل اليك احيانا في فن من فنون رقصها ان جسمها يتثاءب برعشة من الطرب، فاذا جسمك يهتز بجواب هذه الرعشة لا يملك الا ان يتثاءب ... ويجن رقصها احيانا ولكن لتحقق بجنون الحركة ان العقل الموسيقي يصرف كل اعضاء جسمها . ومهما يكن طيش الفن في أودها ولفتتها ونظرتها وابتسامها وضحكها ــ ففي وجهها دائما علامة وقار عابسة تقول للناس افهموني"(١)

(١) وحي القلم الجزء الاول ص ٢٤٤

قابل بين هذا الوصف في طوره الثانوي وبين وصفه للراقصة في طوره الاول ترَ الفرق بين الرافعيين المقلد والمبدع. وله (في وصف الجمال وصوره[1] التعبير عن اثاره في النفس والروح طريقة ممتازة هو فيها طراز وحده بين ادباء العربية في جميع عصورها. فانت من وصفه الجمال الانساني امام لوحات بيانية سحرية تكاد الحياة والعاطفة والروح تنطق مجتمعة من خلالها. وهو في الوصف الروحي العاطفي للجمال الانساني المادي صاحب مدرسة سدت في فراغ الادب ثغرة ما اغنت استعاراته وتشابيهه عن سدها شيئا. فان روح التعبير عن الجمال التي تسللت الى انامل فيدياس الاغريقي فانشاءت له من الصخر الاصم هياكل وتماثيل بشرية في عاطفتها وحيويتها وروحها، قد هبطت بعد اجيال على قلم الرافعي ...

(قال الاستاذ رحمه الله في كتابه "حديث القمر" يا رحمة لهذا الجمال! وجه وضيء الطلعة كانه السعادة المقبلة يصل اليه دم الشباب من القلوب فيتحول فيه الى جمال وفتنة، وكان جميع معاني الحسن التي تتكبر في خديه حقيقة الهية تطل على النفوس من وراء الشفق. فيه عينان تنظران والله بروح تكاد تنطق ولا يفهم عنها الا كانها ناطقة، وتفيضان تلالا وتفترا فكانما تلقيان على الروح فترة تحلم فيها من احلام السماء وتستيقظ. وخدان تحير فيهما الجمال فوقف يتلفت عن يمين وشمال وتراهما اسيلين بارزين، فيا لله! هل هما ثديان صغيران من الورد يرضعان طفل الحب؟[1]))

وفي كتب الرافعي الاربعة (حديث القمر/ السحاب الاحمر/ رسائل الاحزان/ اوراق الورد/ امثلة كثيرة من روحانية حبه وميله الرمزي لوصف العواطف الانسانية. فاسمعه يقول وكم يبدع (ولك ابتسامة يزيد سكون الطرف من غموضها، والاخرى يزيد استطلاق وجهك من صراحتها، والثالثة على استحياء كان هدا معلقا فيها. ولك ابتسامة ملحنة كانها نشيد وجد يترقرق فيها صوتك الرخيم الذى هو ايضا تصوير الابتسام ملاء بحروف ورنين ...[2])).

((وقلت للزهرة يا حبيبتي انما انت كلمة ايتها الزهرة الذابلة، وما ذبولك الا سحابة على نور معنى. افمن اللغة القبلة انت؛ وقد جئت رسالة من شفتيها الي فانكمشت من حياء وخفر، ام من لغة الابتسام؛ وقد جئت تحية من وجهها وفيك ذلك لمعنى من غموض الدلال فانت

من المعاني

---

(١) راجع صفحة ٢٠ من هذه الرسالة.

(٢) الرسالة عدد ٢٠٦ يونية ١٤ سنة ١٩٣٧ السنة الخامسة وجه ٩٩٠.

(٢) اوراق الورد وجه ٩٧

موجهة الي ولست موجهة الى لم انت من لغة اللمس؛ وقد جئت سلاما من يدها وهذا التجعيد فيك شدة حب وضغطة شوق؟ لم انت من لغة النظر وقد جئت ذابلة متناعسة لان فيك نظرة من غرامها تنظر ولا تنظر؟ لم انت من مادة العناق؛ وقد جئت هالكة ضما من انطباق صدرين تحتهما زلزلتا قلبين ترجفان؟ لم انت... آه لم انت من لغة النسيان؛ وجئت رسالة هجر منها وهذا الذبول الذي فيك هو مرض الجفاء ترسله الى قلبه؟ وانظري ...»

«وانظري الآن يا حبيبتي صور نظراتك في قلبي؛ فان لها بعثات من ورائها، وفيها المعاني من تحتها المعاني؛ فهذه نظرات تتحكم تامر تشعرني قوة سطوتها كانما تقول اريد اريد؛ ثم لا يرضيها الرضى فكانها تقول اريد منك اكثر مما اريد ... ونظرات تحيي تشعر النفس قوة سحرها فلا تتفتر بها عيناك حتى ارى الحياة وقد ملاءت وجهك بفن من الانوثة الساحرة كانما ابدعته لك خاصة ... ونظرات من عين ساجية ساكنة الطرف كانها تقول لي؛ ان نظراتي اليك بعض افكاري فيك ... ونظرات يتقطع الطرف بيني وبينك فيها كانها تقول لي افهمت... ونظرة طويلة صارمة لها سيماء قاض محقق تبحث في عن توكيد لتهمة او براءة ... ونظرات من عين تسال متجاهلة وقد شطرت بصرها كأن فيها فكرين احدهما يقول اعرفك والاخر يقول لا اعرفك ... ونظرات الحبيبة لألأت بعينيها كانها تقول لقلبي انت جرئ كالفراشة؛ ولكن على الشعلة المحرقة ... ونظرات الجميلة المزهوة كان فيها شيئا اعلى من ارواحنا بوضح لمحات من الجمال الازلي ... ونظرات الضاحكة اللعوب تنفر وتتدلل كانما تقول لي انها تحس بافكاري تداعبها وتلمسها ... ونظرات الخفرة الحيية التي كانما تحاول ان تخفي سر قلبين تحت كسرة طرف ضعيفة ... ونظرات العذراء اومضت بعينيها وسارقت اللحظ لان روحها تريد ان تقول انها للحب متيقظة ... ونظرات ترنو في سكون واسترخاء كانها تقول ان تعبيري هو ان يموت في التعبير ... ونظرات اراها محدجة كما تنظر من روعة وفزع حين لا فزع ولا روعة؛ فاعلم ان الجمال يهاجمني بسلاح خوفه. وهذه نظرة بريئة ولكن في شكل خاص من البراءة ... لينبعث منها فجاة معنى ظريف يتماجن ويكر ويعبث، وهذه نظرة ناعسة كان وراءها فكرا خطرا نائما تجهد ان لا ينتبه. وهذه نظرة - نظرة واحدة - يقول من يعرف انساب معاني الحب انها ربما كانت ... اخت القبلة فهي قصيرة لا ينفتح بها الجفن حتى ينطبق ... وهذه نظرة طويلة قوية في جذبها فربما كانت ... اخت العناق

---

(١) اوراق الورد وجه ١٠٢

وهذه نظرة ـ نظرة واحدة ـ يخشع فيها بصرك لان تهمة لك من عيني التقت مرة باعتذار لي من عينك ... وهذه نظرة بين المعنيين تحتمل كليهما ـ اساءة الدلال التي واحسانه علي . وهذه نظرة بين اللقائين تجذب في قلبي الخوف والامل بمقدار واحد ... تلك يا حبيبتي صور نظراتك في معرض قلبي وتقابلها هناك الصور الاخرى التي لا تريدين ان اصفها لك لانها الصور المسكينة صور احلام ».(١) .. وقال ـ

((اما انها فتنة خلقت امراة فاذا نظرت اليك نظرتها الفاتره فانما تقول لقلبك اذا لم تاتي الي فانا اتية اليك وخلقت مقدرة تقديرا كان كل شئ فيها وضع قبل خلقه في ميزان الجمال ووزن هناك باهوء القلوب وحبابها . وكانها بعد ان تم تكوينها ارسلت الملائكة في دمها نقطة عطر فهي تنفح على القلوب برائحة الجنة . وهي ابدا تشعر ان في دمها شيئا لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن ولا نراها الا على حالة من هذين حتى ليظنها كل من حادثها انها تحبه وما بها الا انها تفتنه ... رشيقة جذابة تاخذك اخذ السحر لان عطر قلبها ينفذ الى قلبك من الهواء، فاذا تنفست امامها فقد عشقتها ... وتراها ساكنة وادعة امام عينيك ولكن قلبك يشعر انها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قلقا نافرا يتململ، اما انوثتها فاسلوب في الجمال على حدة، فاذا لقيتها لا تلبث ان ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الاسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب . واذا كنت ذكيا فاضافت الى ما فيها من بواعث الهوى اعجابها بك فقد احكمت لك العقدة التي لا حل لها ... ومهما تكن من رجل باذخ فانك بازائها ترى كيف ينقاد جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة، فلا براءة لك ولا مخرج من حبها؛ ومهما تكن من جبل شامخ فانك تتهافت تحت اشعة عينيها كما تتدحرج جبال الثلج في القطب اذا زاحمها عما حولها شعاع رقيق من اشعة الشمس تتنهد فيه نسمة ضعيفة. وهي في لونها ذات بياض اسمر محمر وضيء يخترق العين حسنا وكأن ائتلاف الالوان الثلاثة فيها جملة مركبة من لغة النور والهواء والحرارة، ومعناها الجمال القوي الصحيح. هيفاء ملتفة لم يهبط جسمها ولم يربُ تملأ قلبك كما تملأ ثوبها . وتتمايل اعطافها لو خلق غصن البان امراة لمشى يتهادى في مثل مشيتها . وتنظر نظرة الغزال المذعور الهم انه جميل ظريف فلا يزال مستوفزا يتوجس في كل حركة صائدا يطلبه ..)).(٢)

---

(١) اوراق الورد ص ٦٦

(٢) رسائل الاحزان ص ٧٥

الـــرافعـي الفيلســـــوف

لا اقصد بكلمة فلسفة عمارة فكرية ترابطت اجزاؤها بدقة واحكام وتسلسلت حلقاتها منذ نقطة انطلاق بحيث ترى السابقة ماسكة بعنق الاحقة في اتجاه انحداري من مقدمات الى نتائج . ولا اقصد ايضا بالمحاولة لتحليل المعرفة وارجاع كل شيء الى سببه الاول كي نصل في النهاية الى مطلق الوجود وكلي الكمال . هذا تفكير ميتا فيزيقي صرف لم يتصدى له الرافعي في ادبه ، وانما اعني بكلمة فلسفة نظرات تاملية في الحياة وهي في الذهن لم تفارقه يوما من الايام فجاءت كتابته لمحات نفاذة ترسلها بصيرة شفافة الى اعماق الكيان الانساني (وهي حركة الغواص الدائب لا يقف عند السطح ولا يستقر على القاع وانما يضرب بيديه القويتين في اغوار البحر وقد انقطع عن القطع عن شواغل الناس بالعين والاذن)[1]

كان الرافعي مولعا بالتبحر في مظاهر الوجود ، متهوسا بالالتفات الى الحياة التفاتا وجدانيا ، فاقتاس بشرائع القرآن واهتم باحكامه حتى راى ما يراه وقال ما يقوله وذهب مذهبه . لذلك كانت فلسفته (فلسفة القران وادبه قام منها مقام ابن رشد من ارسطو يقرر ويحرر ويدافع من غير ان يكون لمنطقه حكم ولا لرايه اعتراض)[2] هذا ولا تخلو الرافعي من نظرات بعيدة في الوجود تكفل له الخلود مع الايام بين ائمة المفكرين في الشرق ، فانت لا تقرأ صفحة من ادبه الا وتقذف بك الى ارحب فضاءات الحقيقة الانسانية مما ياخذ بمجامع الفواد ويسطو على النفس . تراه يسوح في داخل الذات ويرفع الستار تلو الستار عن مضامين الباطن ، هنا وهنا تكا حجبا كثيفة عن ابعاد الروح ، فيرى القارئ فيما يرسمه الرافعي رسم نفسه وفي حكايات الرافعي حكايات قلبه ، وهكذا يدلك على ذاتك حين يتكلم عن ذات سواك تلك الذات المضمرة التي يتعذر وعينا لها الا في بعض اللحظات الشاردة من صيرورتنا نحن ، وهي لعمري ميزة لا يتصف بها الا من استطاع ان ينزع عن بصيرته اغشية الحواس وينفذ بخمر بديهته الى الانسانية القائمة في كل فرد بشري . الرافعي من العقول الجبارة في حقل التامل الوجداني ، يرى الطبيعة امامه كتابا مفتوحا يقرأه في سطوره كيفما قلب من صفحاته ، فاذا نظر الى اوراق الشجرة عبر منها

---

(1) من كلام احمد حسن الزيات في الرسالة عدد ٢٥٢ السنة السادسة ٩ مايو ١٩٢٨ ج ٢ ص ٧٢٢

(2) // // // // // // // // ٢٥٤ // // ١٦ // // ٨٠٢

الى الخفي وهبط بارتفاع في الفكر من الاوراق الى الاغصان الى الساق فالى ما استتر تحت التراب ثم غاص وابعد في السحيقين ثنايا الغيب، وهكذا ينتقل من الشجرة الى الارض ومن الارض الى الطبيعة ومن الطبيعة الى الحياة فالى الكون بل الاكوان ومن ثم الى الوجود العام في جملته، واذا وقف بك امام البحر اوقفك امام يم النفس وارتفع بك حتى النجم واراك خلف الغيم في مدى الاقصى ابعادا تنطوى على ابعاد ادب الرافعي ادب غيبة عن ارضية الحس وارتفاع الى سماوية الفكر بعيد الرماية الى فوق ودائما الى فوق وبعيد الارتماء في الاغوار ودائما في الاغوار، فاسمعه يقول مثلا عن سراب الحياة

(ما عسى ان تكون الحياة بكل ما فيها الامدة محدودة على ظهر الارض تجعلها اوهام الانسان ومطامعه وحماقته وجهله وكبرياؤه كانها الابد كله، فيكد ويكيد ويحمل ويذخر ويهنأ ويحزن ويطمع ويحرص على نسبة من ذلك لا من نفسه اى نسبة ابدية لا انسانية، الا انما مثل هذا الانسان المغرور مثل رجل جمع الله عليه المصيبتين في باصرته وبصيرته فضل في مكان فهو يقبل ويدبر في دائرة من فضاء الارض لا يهتدي الى الوجه ولا يذهب على السمت فيتوهم ان الطريق لا ينتهي وانه وقع في صحراء لم تدرسها عكازته، وليست من علم رجليه في جغرافية هذه المسكونة، وكما لا تكون الطرق عند هذا الاعمى الا من علم رجليه فاكثر طرق الحياة عند هؤلاء المغفلين الذين يطمس الله على بصائرهم هى من علم بطونهم، وما ادراك ما علم بطونهم؟ وما رأت الحكماء احدا قط جهل حقيقة معنى الحياة الا وجدوا هذه الحقيقة في بطنه، ولذلك قالوا من كانت همته ما يدخل جوفه كانت قيمته ما يخرج منه"(١))

واسمعه يتحدث عن تكالب الانسان لاشباع شهواته قال (ايها المغرور ما اراك الا دائبا في طلب الحياة حتى تفقدها من شدة الطلب فلا تكاد تستوضح ما هي فاياك واياها لا تاخذ معنى الحياة من نفسك ان لنفسك اغراضا حية تريد ان تكون هي الحياة؛ ولا من الناس ان فيهم اغراض نفسك ولا من مدة عمرك فانها لا تبلغ طرفة واحدة من عين التاريخ ... ولكن اعد نظرا على ما وراءك وخذ معنى الحياة من ستة الآف سنة عرفت من تاريخ الحياة نفسها ثم من عمر الارض كله ثم من تاريخ الموت المجهول اوله وآخره؛ خذ معنى الحياة من هذه الافواه الصامته التي لا تكذب لانها تحفظ الحقيقة الانسانية، من هذه القبور التي تملأ الرحب، من هذه الهاوية التي ينصب فيها فراغ الحياة دائما دائما لان تحتها مجرى التيار المتدفع من النهاية الارضية المعروفة الى الابد الذى لا تعرف له نهاية، خذها من هذه الكلمة التي وضعتها السماء للارض هذه الكلمة الازلية التي تحقق الاخاء والمساواة في الناس جميعا بلا شذوذ ولا تأويل، الكلمة التي يكون القبر زاوية في معناها كلمة الله عز وجل في قوله تعالى "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك" (٢))

وانظر الى هذا المقطع الجميل عن الموت والحياة

---

(١) كتاب المساكين وجه ١٢٥

(٢) " " " ١٥٥

(ومتى اعتبرنا الشقاء الانسانيوما يعترض الانسان فيطريق الحياة راينا الحق الذى لامرية فيه ان هذا الانسان حين تمشيراحلته الى القبر لا يكون قدا نتهى من الحياة كما يقال ولكنه ينتهي حينئذ من الموت . . . وإذا نحن اعتبرنا هذا الوجود الفانية بما وراءه من عالم الغيب رأينا كل صنف من الموجودات كانه لغة متميزة بخصائصها اوجدها الله فيهذه الحياة لتدل عليه سبحانه بنوع من الدلالة او ضرب من المجاز . فاينما مد الانسان عينيه راى لفظا كالاشارة او اشارة كاللفظ ولكن قتلالانسان ما اكفره فان مالا يريد ان يفهمه ليتذكره ويتزكر به اكثر مما فهمه لينساه. ولقد راى ان مافوقالارض هو ما تحت السماء لا يدله باشارة واحدة على انه خالد في هذه الحياة الدنيا)[1]

وانظر كيف يستقصي الشك ويرى الايمان فيه قال (تباركت ربنا وتعاليت ان الشك فيك لهو اليقين على طريقة والايمان بك هو اليقين على طريقة اخرى. المقعد لا يمشي والاعرج لا يعدو والضعيف لا يسبقالعداء . فاذا انكر المقعد على من يراه يمشي والاعرج على من يبصره يعدو والضعيف على من يعرفه قد سبق ، فما ذلك من انكار الحين ولا من مكابرة النفس وانما ذاك راي منظور فيه الى حظ رجل مهملة او قدم او عظم واهن، ومن ثم لن يكون في الناس ملحد الا وفي طباعه او اخلاقه او حوادث دنياه جهة مريضة ينكسر عندها الراى ويبتلى بها الحس فهي توجهه وتصرفه منظورا فيه الى شعور بعينه. وقد ينتحر الرجل من اعراض امراة، فمنذا يقول ان النفس الانسانية في وزن قبلة. فاما الملحد بغير علة فهذا لا يوجده اب ولا تضعه ام اذ يجب ان تكون طباعه له وحده ميراثه منه وحده حتى يصدق زعمه انه الحد للبرهان وحده. فما يجحد الجاحد الا ليجعل نفسه في الرفاهية من الامر والنهي ويخرج بها من حكم الضرورة، والايمان كله ضرورات مسلطة الحكم على ما بين المؤمن ونفسه وما بين المؤمن والناس وما بين المؤمن وربه حتى كان فيه شيئا يلذعه بالجمر فما يستريح من لذعة الاقدر ما يجم ليحتمل الذعة بعدها . . . يا الهي انما يحبك المومنون ويكابدون في رضاك على مقدار منك لا منهم. فانت تقذف قلب المؤمن بضرورات كشعل البراكين، وتضرب روحه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة وتتركه في الارض يشعر كانما خر عليه سقف العالم . .)[2] (وانما محل الايمان من اهله فوق محل الحكومة ممن تحكمهم فهو الامر والنهي بلغة الدم والعصب، وهذه الغايات التي تتالف من اجلها الحكومات كامن الناس ونظامهم وحريتهم وسعادتهم هي انفسها محكومة بمسائل تاتي من ورائها في طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم، فان لم تكن في النفوس من الدين اصول تامر وتحكم وفي الطباع من اليقين اصول تستجيب وتخضع رجعت الحكومة في الناس اداة مسلطة لا تغنى كبيرا غناء في الخير والشر، اذ يحتاج الخير ابدا الى قوتها

---

(١) كتاب المساكين وجه ٢١

(٢) " " وجه ٥٧

تحميه ويحتال الشر ابدا على قوتها تستنقذه، ومتى لم يكن الخير الا بالقوة فاحتياجه اليها شر، ومتى لم يكف الشر عن القوة فاحتياله عليها شر مثله؛ فاذا تضعضعت من الاديان هذه الدعائم الراسية وفرط من الانسانية هذا الفارط الذى ليس في الارض كفاء سنة لم تجد حسنة في حكومة من الحكومات الا معها من طبيعتها سيئة، ولم تجد سيئة الا هي سيئتان، فلن تكون الحياة حينئذ الا تعقيدا اشد التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى ومن حقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة)[1]

هذا بعض الرافعي المتأمل في شؤون الحياة. وجدير بنا ان ندرس بانتظام بعض خطوطه الفكرية الرئيسية كما تظهر منتشرة في معظم كتبه . . . .

<u>نزعته الايمانية</u> = كان الرافعي (عجيبا في ايمانه بالغيب، وتناجي الارواح، وتنادى الموتى والاحياء، وكان يؤمن بالسحر والعرافة وكثيرا ما كنت تسمع منه «حدثتني نفسي . . . القي الي . . . هتف بي هاتف» وكان يعني ما يقول على حقيقته)[2]

وكتاباته ثورات عنيفة في اكثرها على العقليين كانه سخّر للدفاع عن الدين لا سيما القران بعصبية كانت تخرج كالمتفجرات احيانا من شق قلمه وخصومة الرافعي وطه حسين مشهورة في ادبنا الحديث، فهي تقوم بالواقع على الشك الديكارتي الذى حاول الثاني بثه في الشرق بعد رجوعه من فرنسا ومالك الا ان تقرأ (تحت راية القران) لترى (صورة جهمة للرافعي الثائر المغيظ الحنق جاحظ العينين كانما يطالب بدم مطلول مزبد الشدقين كالجمل الهائج منتفخ الانف كانما يشم ريح الدم سريع الوثوب كان خصما غراميٍّ له بعد ما دار طويلا فهو يخشى ان يفر . . .)

ادب الرافعي ادب وجداني حاول في معظمه ان يثبت كون الايمان فوق العقل (لان الالهام اقدم منه في الوجود واظهر منه اثرا واوضح منه سنة. وما بالعقل يبني الطائر عشه ويقطع بعض الطير الى وطنه من اقاصي الارض او يجيء من غايته، ولا بالعقل يصنع النمل ما يصنع ويأتي النحل ما ياتيه من دقائق الهندسة ومعجز الهندسة الى امثال لذلك كثيرة . . . ان الالهام طبقة فوق العقل؛ ولهذا كان فوق الارادة ايضا، وهو محدود في الانسان والحيوان جميعا؛ اما هذا (اي الحيوان) فلا يتصرف فيه ولا يتصرف به؛ وهذا لا يكون ابدا الا كما هو ولا يعطى الارادة المطلقة لانها دون الالهام؛ واما ذلك (اي الانسان) فلا يلقاه الا في احوال شاذة من احوال النفس؛ وهذا لا يكون ابدا غير من هو، ولا يسلب الارادة لان الالهام فوقها . . .)[4] ولو

ذلك دليل ساطع على ايمان الرافعي بقوة الالهام، فهو يركز شطحات القلب فوق وضوح الادراك العقلي. ولكن ادبه لا يخلو من وقفات يمجد فيها العقل بمثل قوله :

---

(١) كتاب المساكين ص ٩ (٣) سعيد العريان ١٢٢
(٢) [illegible] ٢٧٢ (٤) اعجاز القرآن ص ٢٨٢

الانسان حيوان لولا العقل، فلما اخضع لشهواته العقل صار انسانا لاحدّ له في الحيوانية فهو من هذه الجهة لا انسان ولا حيوان؛ وان كان الشيطان مطرودا من رحمة الله فخير ما يقال في هذا الانسان انه شيطان فيه موضع للرحمة ... ولقد خلق الله هذه الحواس ولا ضابط لها الا العقل يحكم تحكيمها، ويتولى تسديدها، ويستعين في امرها بكل على كل، ومن ثم يستقيم من هذا الانسان شيء معقول ويصبح قد ضربت عليه الحدود لا يتعداها ووسمت له دائرة في الانسانية لا يجاوزه ..)(1)

غير ان النزعة الايمانية هي الغالبة في ادبه، واذا قال حسنا في العقل فما ذلك الا كمر الكرام لا يجوز لنا ان نتخذه كطابع رئيسي في حياته الفكرية . ولا بد لنا في هذا الموقف من الرجوع الى حياة الرافعي الخاصة لنرى كيف نشأت هذه النزعة الدينية فيه ...

ب = <u>نشأته الدينية</u> = لاسرته ثقافة يجوز لنا ان نسميها (ثقافة تقليدية) تطبع افرادها منذ ولادتهم بطابع الدين وتجعل كل واحد منها خلفا لسلفه الراحل. وقد كان القرآنُ المادةُ الاولى في هذه العائلة حيث (نشأ الرافعي فاستمع الى ابيه اول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئا من القرآن ووعى كثيرا من اخبار السلف فلم يدخل المدرسة الا بعد ان جاوز العاشرة بسنة او اثنتين ..)(2)

ولم يتلقن لغة اجنبية الا القليل من الفرنسية، لذلك ظلت ثقافته عربية صرفة دون ان يفسدها دخيل تصطبغ به مما ساعده على البقاء نسخة اصلية ناصعة لا يعلوها غبار ثقافة غربية ولا تشوبها شائبة . وبذلك وعى اخبار الاقدمين في مكتبة ابيه الحاوية على اهم الكتب العربية القديمة والحديثة .

وهكذا تتلمذ في الادب على يد الجاحظ وابن المقفع وابي الفرج الاصبهاني وفي الدين على القران والمتصوفين امثال الحلاج فتشبع من جوهم حتى اصبح يرى ما يرونه ويفكر كما يفكرون ويكتب كما يكتبون ويعاشر ناسا هم ناسهم الى ان صار قطعة منهم او صاروا في صميم كيانه الادبي والديني ، وقد تكلم الرافعي ذاته عن هذا الاثر التربوي الذى تلقاه عن ابيه قال ...

(كنت في العاشرة من سني وقد جمعت القران كله حفظا وجودته باحكام القراءة ونحن يومئذ في مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة، وكان ابي رحمه الله كبير القضاة الشرعيين في هذا الاقليم ومن عادته انه كان يعتكف كل سنة في احد المساجد عشرة الايام الاخيرة من شهر رمضان يدخل المسجد فلا يبرحه الا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم ، فهناك يتامل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق وينظر

---

(1) كتاب المساكين ص ١٢٧

(2) سعيد العريان: حياة الرافعي ص ١٦

الى الزائل بمعنى الخالد ويطل على الدنيا اطلال الواقف على الايام الثائرة ويغير الحياة في عمله وفكره ويهجر تراب الارض فلا يمشي عليه ، وتراب المعاني الارضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من اكثر قيود النفس ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير، ثم لا يرى من الناس الا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء المدعو الى الدخول المسجد بدعوة القوة السامية المنحني في ركوعه ليخضع لغير المعاني الجلال الاعظم ، الساجد بين يدي ربه

وما هي حكمة هذه الامكنة التي تعلم العبادة الله ؟ انها امكنة قائمة في الحياة، تشعر القلب البشرى في نزاع الدنيا انه في انسان لا في بهيمة ... وذهبت ليلة فبت عند ابي في المسجد؛ فلما كنا في جوف الليل الاخير ايقظني للسحور، ثم امرني فتوضأت لصلاة الفجر واقبل هو على قراءته انتهاها قبل موته بثلاثة اشهر فالعجب له يذكر اوليته وهو على ابواب فلما كان السحر الاعلى هتف بالدعاء المأثور اللهم لك الحمد انت نور السموات والارض ولك الحمد انت نور السموات والارض ولك الحمد انت بهاء السموات والارض ولك الحمد انت زين السموات والارض ولك الحمد انت قيام السموات والارض ومن فيهن ومن عليهن انت الحق ومنك الحق ... الى اخر الدعاء .

واقبل الناس يتتابعون المسجد فانحدرنا من تلك العلية التي يسمونها (الدكة) وجلسنا ننتظر الصلاة. وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت وفي كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتا ضئيلا يبص بصيصا كانه بعض معاني النور نفسه. فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها، يلوح كانها شقوق مضيئة في الجو، فلا تكشف الليل ولكن تكشف اسراره الجميلة ، وتبدو في الظلمة كانها تفسير ضعيف لمعنى غامض يومئ اليه ولا يبينه ، فما تشعر النفس الا ان العين تمتد في ضوئها من المنظور الى غير المنظور كانها سر يشف عن سر .

وكان لها كمنظر النجوم بتمام جمال الليل بالقائه الشعل في اطرافه العليا والباس الظلام زينته النورانية ؛ فكان الجالس في المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كانها مخبوءة، ويحس في المكان بقايا احلامه النوراني تنكشف لما عفا منه متمسكا فيها روح المسجد ، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقدر هادئا وادعا راجعا الى نفسه، مجتمعا في حواسه، منفردا بصفاته، منعكسا عليه نور قلبه ؛ كانه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار او كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على الوان الارض . ثم يشعر بالفجر في ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام باول شعور الضوء ندبا كان الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه لينضر من يبس ويرق من غلظه . وكانما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار من ايديهم مبدوءا بالرحمة مفتتحا بالجمال فاذا كان شاعر النفس النقي فيه

النور السماوي الانساني فاذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر ... لا انسى ابدا تلك الساعة ونحن في جو المسجد والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك، وتلك السرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب والمصلين الساجدين عليهم وقار ارواحهم، ومن حول كل انسان هدوء قلبه وقد استبهمت الاشياء في نظر العين ليلبسها الاحساس الروحاني في النفس فيكون لكل شيء معناه الذى هو منه ومعناه الذى ليس منه، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيل .. لا انسى ابدا تلك الساعة وقد انبعث في جو المسجد صوت غرد رخيم يشق سدفة الليل في مثل رنين الجرس تحت الافق العالي وهو يرتل هذه الآيات من اخر سورة النحل "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين. وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به؛ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك الا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق مما يمكرون، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون" .. وكان هذا القارئ يملك صوته اتم ما يملك ذو الصوت المطرب، فكان يتصرف به احلى مما يتصرف القمرى وهو يتفنن في انغامه وبلغ في التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر، حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بابدع مما فسرها هذا الصوت وما كان الا كالبلبل هزته الطبيعة باسلوبها في جمال القمر فاهتز يجاوبها باسلوبه في جمال التغريد ... كان صوته على ترتيب عجيب في نغماته يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة ويضطرب اضطرابا روحانيا كالحزن اعتراه الفرح على فجاءة بصيح الصيحة تترجح في الجو وفي النفس، وتتردد في المكان وفي القلب، ويتحول بها الكلام الالهي الى شيء حقيقي يلمس الروح فيرفض عليها بمثل الندى، فاذا هي ترق رفيفا واذا هي كالزهرة التي مسحها الطل ... وسمعنا القران غضا طريا كاول ما نزل بها الوحى فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كانه بعض السر الذى يدور في نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه . واهتز المكان والزمان كانما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه، وبدا الفجر كانه واقف يستاذن الله ان يضيء من هذا النور! وكنا نسمع قران الفجر وكانما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها فلم يبق على الارض الا الانسانية الطاهرة ومكان العبادة، وهذه هي معجزة الروح متى كان الانسان في لذة روحه مرتفعا على طبيعته الارضية. اما الطفل الذى كان فيّ يومئذ فكانما دعي بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويوديها الى الرجل الذى يجيء فيه من بعد؛ فانا في كل حالة اخضع لهذا الصوت؛ ادع الى سبيل ربك؛ وانا في كل ضائقة اخشع لهذا الصوت واصبر وما صبرك الا بالله ...(١)

(١) وحي القلم الجزء الثالث وجه ٢١

هذه لمحة سريعة عن سيرة الرافعي نرىها ذلك الطابع الذى تركته فيه نشاته الدينية وقد قام على حراستها والده الشيخ، ثم ظلت هذه النزعة الايمانية متمسكة به في اشد مواقفه الصعبة كما حصل له ذلك في بعض المآزق الغرامية مثلا فقد (وقع له في هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب، ودافع نفسه ما دافع، فلم يجد له طاقة على المقاومة واحتال على الخلاص فما اجدته الحيلة الا همّا على هم. وكان حبه اقوى منه ولكن دينه واخلاقه كانت اقوى من حبه وقال لنفسه ما انا وهذا الحدث الذى يعترض طريقي ويغلبني على ارادتي. ان في بيتي امراة احبها وتحبني. والحب عند الرافعي لا يابى الشركة وان لها علي حقا ليس منه ان يكون معي لغيرها نظرة او ابتسامة الا ان تأذن لي. ماذا يكون من امرى وامرها غدًا امام الله حين يطلب كل ذى حق حقه.)(١) تلك وقفة من موقف الرافعي العصيبة وقد اطبقت عليه فيها كماشة العاطفة تشد على خناقه. ومع ذلك كان الدين والاخلاق فوق عواطف القلب وهوى النفس وهو القائل ...

قلبـي يحـب وانمـا اخلاقـه فيـه ودينـه .

<u>حبـه للمـراة</u> = والرافعي في حبه للمرأة روحاني الميل كما تظهره اقواله. فهو لا ياخذ من المراة الا تلك الناحية التي توصل الانسان الى عتبة الدين فاسمعه يقول (والطبيعة نفسها تهيئ الانسان للدين باسلوب غريب هو هذا الحب الذى يخلق فطرة على انواع مختلفة متعددة حتى لا يخلو منه احد فلا معدل عنه ولا محيص. وانما هو في مظاهره — ايها كان — درجة للنفس الانسانية تصعد به درجات من الفضائل كالاخلاص والايثار والاتصال الفكرى والانبعاث الروحي والشوق الخيالي ونحوها مما هو في الحقيقة ايجاد للحياة النفسية في اعمالها وفيض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لاحداث الملامسة بين الارواح والاشياء والترابط بين الجاذب والمجذوب. وكل ذلك تهيئة للدين وعمله في النفس ليكون قائما على اساسه في الطبيعة. فالحب دين على اسلوب خاص ضيق ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقع في الدين من المؤمن به على وتيرة واحدة اذ لا يرضى القلب في هذا ولا هذا غير راي واحد.)(٢) وانظر اليه كيف يحدد الحب قائلا (هل الحب الا روحانية ترجع بنا الى ما وراء انفسنا لتضيف بعض المجهول الى وجودنا وتزيد لنا نعيم الدنيا والامها ما لا يزيده شيء آخر غير الحب. لو سالتني من هو العاشق لاجبتك انه لن يكون عاشقا الا من احس انه قذف به في الابتسامات والنظرات بمرة واحدة الى مهبط السماوات، فيشعر ان نعيمه اهناء من نعيم الارض وان عذابه اشد من عذابها. وكانه اذ يتنعم لم يصب

---

(١) سعيد العريان : حياة الرافعي وجه ٤٧

(٢) اوراق الورد وجه ٩٦

اسباب النعيم بل اسباب الخلود في الجنة، واذ يتالم لم يجد مادة الالم بل مادة نارية على قلبه /[1] ... وقال ايضا (والحب الروحي الصحيح انما هو كالطفولة لا تعرف وجه الفتى بل الا شبيها بوجه الفتاة فليس فيه تذكير وتانيث بل حالة متشابهة كاخضر الا الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيء الحس فيها الا من جهة القلب . وما ارى الشجرة حين تخضر الا قد نبتت فيها كلمة من قدرة الله ذات حروف كثيرة ؛ ولا الزهرة حين تتعطر الا قد لاح في جمالها معنى بديع من حكمة الكلمة الالهية، ولا الانسان حين يعشق عشقا صحيحا كما تروّح الشجرة وتتفطر الا قد صار قلبه كتابا من تلك الحكمة النقية الجميلة المعطرة [2]) ..

وعندما اراد ان يصف حبه لها قال = (اقول لك احببتها لا كهذا الحب الذى تراه وتسمع به في رواية تبتدئ وتنتهي في جزئين من رجل وامراة ؛ ولا كالحب الذي يؤلفه الكتاب والشعراء حين يجمعون عشرين معنى في كلمة او يرسلون عشرين كلمة لمعنى .... ولا كالحب الذى يباع ويشرى فتاخذ منه بالدينار اكثر مما تاخذ بالدرهم .... ولا كالذى تجهله وانت من الاشراق والنور كزجاجة الخمر فيعيدك وانت من الظلمة والسواد كزجاجة الحب .... احببتها ولا كالحب نفسه . منذا الذى قال = (من يهلك نفسه من اجلي يجدها) اظنه المسيح وقد كانت هي تتمثل بها كثيرا ؛ ولكن هذه الكلمة بعدُ كلمةُ الحياة الازلية التي تقول للناس حين يشكّون فيها موتوا لتعرفوا، كلمةُ الجمال الاعلى التي يقول للشمس حين تصفر اغربي لتصبحي بيضاء حية في النهار، كلمةُ الحب الصحيح الذى يقول للمبتلى به = تعذب لتعرف كيف تتخيل السعادة وتتمناها . كذلك تراني لا احب الا لثلاث = لاعرف واحس واتخيل ولا اهلك بالحب الا لثلاث = لاوجدَ في نفسي وابقى في نفسي واضم نفسا الى نفسي [3])

والزواج الصالح انما يبنى حسب اعتقاده على اسس الدين قال (ومتى كان الدين بين كل زوج وزوجته فمهما اختلفا وتدابرا وتعقدت نفساهما فان كل عقدة لا تجيء الا ومعها طريقة حلها، ولن تشاد الدين احد الا غلبه وهو اليسر والمساهلة والمرحمة والمغفرة ولين القلب وخشية الله وهو العهد والوفاء والكرم والمؤاخاة والانسانية وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة او ضيقة ...)[4]

شرقيتــــه وموقفــه من الغـــرب = والرافعي شرقي قبل كل شيء. وشرقيته وليدة نزعته الدينية الى حد ما . فهو لا يرى في الغرب الا تمدنا فاسدا وحياة شك ومادة. وهجماته على مدنية

---

(1) اوراق الورد وجه ٧١ (٤) وحي القلم الجزء الاول وجه ١٥٧

(٢) رسائل الاحزان وجه ٤١

(٣) ... وجه ٤٢

اوربا ~~المنيفة~~ عنيفة مشهورة قال (الاخلاق في رأيي هي الطريقة الشخصية الفردة على مقتضى الواجبات العامة، فالاصلاح فيها انما يكون من عمل هذه الواجبات اى من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه. وعندي ان للشعب ظاهرا وباطنا؛ فباطنه هو الدين الذى يحكم الفردة وظاهره هو القانون الذى يحكم ~~الديني المتصل بالغيب~~ الجميع ولن يصلح للباطن المتصل بالغيب الا ذلك الحكم الديني المتصل بالغيب مثله؛ ومن هنا تتبين مواضع الاختلال في المدنية الاوروبية الجديدة. فهى في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسد بها في ذات نفسه اذا هو متحلل من ~~الاخلاق~~ الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحا منتظما في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرح هازئا من الاخلاق ساخرا بها؛ لانها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده اخلاقا يعتد بها الا اذا درّت بها منافعه، والا فهي ضارة اذا كانت منها مضرة، وهي مؤلمة اذا حالت دون اللذات؛ ولا ينفك هذا الفرد يتحول لانه مطلق في باطنه غير مقيد الا باهوائه ونزعاته، وكلمتا الفضيلة ~~والذيلة~~ والرذيلة معدمتان في لغة الاهواء والنزعات؛ اذ الغاية المتاع واللذة والنجاح وليكن السبب ما هو كائن ... وبهذا فلن تقوم القوانين في اوروبا اذا فنى المؤمنين بالاديان فيها او كاثرهم الملحدون وهم اليوم يبصرون باعينهم ما فعلت عقلية الحرب العظمى في طوائف منهم قد ~~خرجت~~ غمرت انفسهم من ايمانها فتحولوا ذلك التحول الذى ~~اشارنا~~ اومأنا اليه، فاذا اعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربة مقاتلة ترمي في كل شيء بروح الدم والاشلاء والقبور والتعفن والبلى ... وانتهت الحرب بين امم وامم ولكنها بدأت بين اخلاق واخلاق. وقديما حارب المسلمون وفتحوا ~~العالم~~ العالم ودوخوا الامم. فاثبتوا في كل ارض هدى دينهم وقوة اخلاقهم الثابتة وكان من وراء انفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول ولا تستخفه الحياة بنزقها، ولا تستفزه الدنيات فتحمله على الطيش. ولو كانوا هم اهل هذه الحرب الاخيرة بكل ما قذفت به الدنيا، لبقيت لهم العقلية ~~الموثلية~~ المؤمنة القوية، لان كل مسلم فانما هو وعقيلته في سلطان باطنه الثابت القار على حدود بيته محصلة مقسومة، تحوطها وتمسكها اعمال الايمان التي احكمها الاسلام اشد احكام بفرضها على النفوس منوعة مكررة كالصلاة والصوم والزكاة ليمنع بها تغيرا ويحدث بها اخر، ويجعلها كالحارسة ~~للارادة~~ للارادة ماتزال تمر بها وتتعهدها بين الساعة والساعة.

(انما الظاهر والباطن كالموج والساحل؛ فاذا جن الموج فلن يضيره ~~و~~ ما يبقي الساحل ركينا هادئا مشدودا باعضاده في طبقات الارض؛ ~~اما~~ اذا ماج الساحل ... فذلك يكون خسفا بالارض ~~[illegible]~~ والماء ~~والارض~~ وما يتصل بهما. في الكون اصل لا يتغير ولا يتبدل هو قانون ضبط القوة وتصرفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة، ويقابله في الانسان قانون مثله لا بد منه لضبط معاني الانسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال، ~~وتلك~~ الدين الاسلامي وواجباته وآدابه، ان هي ~~الا~~ الا حركة هذا القانون في عمله ~~فما تلك~~ [1] وكل فروضه

اسلوب آخر غير اسلوب الجبابرة والاباطير؛ ولا اجرام الا

---

(١) وحي القلم الجزء الثاني وجه ٨٢

الدين الاسلامي اساس كل شيء في نظره . وقد دفع به هذا الايمان الى محاولة قلم بها ولكنها فاشلة حسب ظننا لدرس الاداب العربية على ضوء القرآن (١) وفهم المدنية الغربية ايضا على اسس الدين الاسلامي . ولما كان موقفنا هنا تحليل اهم عناصر ادبه الايماني فلا نرى مانعا من ان نعرض عرضا لا غير نزعة معاكسة لنزعة الرافعي الدينية ارتطمت بها وكان ما كان بينهما من مجادلات وهجاء وهي نزعة الدكتور طه حسين . ولاجل ذلك نكتفي فقط بالمرور سريعا على تلك الروح التي ادخلها معه الى الشرق صاحب (الايام) وعمل بموجبها لدرس الآداب العربية . وهكذا تبرز لنا بوضوح بعض البواعث التي دفعت الرافعي الى ان يشن غارته المنيفة على طه حسين بمقالات جمعت فيما بعد باسم (تحت راية القران)

طـه حسيـن = ساقف فقط عند حدود ذكر بعض الشواهد من كتب طه حسين ترينا اتجاهه الفكري المعاكس تمام المعاكسة لنزعة مصطفى صادق الرافعي . قال : اريد ان يظفر الادب بهذه الحرية التي تمكنه من ان يدرس لنفسه ، التي تمكنه من ان يكون غاية لا وسيلة ، فالادب عندنا وسيلة الى الآن ، او قل ان الادب عند الذين يعلمونه ويحتكرونه وسيلة منذ كان عصر الجمود العقلي والسياسي ، بل قل ان اللغة كلها وما يتصل بها من علم واداب وفنون لا تزال عندنا وسيلة لا تدرس لنفسها وانما تدرس من حيث هي سبيل الى تحقيق غرض آخر . وهي من هذه الناحية مقدسة وهي من هذه الناحية مبتذلة . وقد يكون من الغريب ان تكون اللغة والاداب مقدسة ومبتذلة في وقت واحد ، ولكنها في حقيقة الامر مقدسة ومبتذلة = مقدسة لانها لغة القران والدين وهي تدرس في رأى اصحاب الادب الكبير من حيث هي وسيلة الى فهم القرآن والدين ، ومبتذلة لانها لا تدرس في نفسها ولان درسها اضافي ولان الاستغناء عنها قد يكون ميسورا لو امكن ان يفهم القران والحديث بدونها ، ولان الفقه خير منها واشرف ، ولان التوحيد خير منها واشرف ، لان هذه العلوم الدينية تدرس لنفسها ، تدرس لان الله اخذ الناس بدرسها والعلم بها ، تدرس لانها تحقق منافع الناس في الدنيا والآخرة . اللغة والاداب اذن مقدسة ومبتذلة وهي من حيث هي مقدسة لا تستطيع ان تخضع للبحث العلمي الصحيح . وكيف تريد ان تخضعها للبحث العلمي الصحيح والبحث العلمي الصحيح قد يستلزم النقد والتكذيب والانكار ، والشك على

(١) راجع كتابه تاريخ آداب العرب مجلد ١٢ وما يليه .

اقل تقدير، وما رايك في الذي يعرض الاشياء المقدسة لمثل هذه الاعراض؟ وهي من حيث هي مبتذلة لا تستطيع ايضا ان تخضع للبحث العلمي الحديث، ومن ذا الذى يعنى بالادب واللغة وعلومهما وهي وسائل؟ اليس خيرا من ذلك ان يعنى بالغايات؟ ومن ذا الذى يستطيع ان يعنى باللغة والادب وعلومهما وهي قشور؟ اليس خيرا من ذلك ان يعنى باللباب؟ وعلى هذا النحو يصبح الدرس العلمي للغة والادب خطرا من جهة، ومزدرى مهينا من جهة اخرى. وكيف تريد ان يدرس علم درسا ينشئه وينميه ويمكنه من الازهار والاثمار وهو خطر مزدرى في وقت واحد؟

اظن انك استطعت الآن ان توافقني على ان الحرية بهذا المعنى شرط اساسي لنشأة التاريخ الادبي في لغتنا العربية. فانا اريد ان ادرس تاريخ الاداب في حرية وشرف كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان والنبات. لا اخشى في هذا الدرس اي سلطان وانا اريد ان يكون شأن اللغة والآداب شان العلوم التي ظفرت بحريتها واستقلت بها من قبل والتي اعترفت لها كل السلطات بحقها في الحرية والاستقلال، اتظن ان في مصر مثلا سلطة تستطيع ان تعرض لكلية الطب او كلية العلوم وما يدرس فيهما من مذاهب التطور والنشوء والارتقاء وما الى ذلك. كلا لان هذه العلوم قد استقلت وحملت السلطات في العالم كله على ان تعترف لها بالاستقلال، لان هذه العلوم تدرس لنفسها. وقد ارغم الناس جميعا على ان يعترفوا لها بانها تدرس من حيث هي غايات لا وسائل وقد وصل الادب في اوروبا الان الى هذه المنزلة ووصل بعد جهد ومشقة ولم يصل الا في هذا العصر الاخير ولكنه قد وصل بالفعل واصبح يدرس لنفسه واصبح يستمتع من الحرية بمثل ما تستمتع به الطبيعة والكيمياء واصبح خصومه لا يحاربونه بالسلاح الادارى او القضائي كما كانوا يفعلون من قبل وانما يحاربونه بالسلاح العلمي الادبي الخالص فيقيمون الحجة ويتجادلون بما يلائم مزاجهم من قوة او ضعف ومن لين او عنف ...

(الادب في حاجة اذن الى هذه الحرية، هو في حاجة الى الا يعتبر علما دينيا ولا وسيلة دينية، وهو في حاجة الى ان يتحرر من هذا التقديس، هو في حاجة الى ان يكون كغيره من العلوم قادرا على ان يخضع للبحث والنقد والتحليل والشك والرفض والانكار، لان هذه الاشياء كلها هي الاشياء الخصبة حقا. واللغة العربية في حاجة الى ان تتحلل من التقديس، هي في حاجة الى ان تخضع لعمل الباحثين كما تخضع المادة لتجارب العلماء . يوم يتحرر الادب من هذه التبعية

يوم تتحلل اللغة من هذا التقديس يستقيم الادب يستقيم الادب حقا ويزهر حقا ويؤتي ثمراتهما لذيذا حقا . اتذكر القرون الوسطى حين لم يكن يباح للناس تشريح الجسم الانساني لانه كان مقدسا لا ينبغي ان يمسه بهينه ؟ ثم اتذكر ماذا كان تاثير ذلك في علم الطب وفي فنون التصوير والتمثيل ؟ ثم اتذكر يوم ابيح للناس ان يدرسوا جسم الانسان بالتشريح ويخضعوه لهذا الدرس الدقيق ؟ اتذكر ماذا احدث ذلك من الاثر في العلم الطبيعية وفي الفنون الطبية ، وكيف نشا عن ذلك ان استقامت فنون التصوير والتمثيل استقامة صحيحة منتجة ؟ هذا بعينه شان اللغة والادب ، لن توجد العلم اللغوية الادبية ولن تستقيم فنون الادب الا يوم تتحلل اللغة والادب من التقديس ويباح لنا ان نخضعهما للبحث كما تخضع المادة لتجارب العلماء . ولكن هذه الحرية التي نطلبها للادب لن تنال لاننا نتمناها ، فنحن نستطيع ان نتمنى ، وما كان الامل وحده منتجا ، وما كان يكفي ان تتمنى لتتحقق امانيك . انما ننال هذه الحرية يوم ناخذها بانفسنا لا ننتظر ان تمنحنا اياها سلطة ما ، فقد اراد الله ان تكون هذه الحرية حقا للعلم ، وقد اراد الله ان تكون مصر بلدا متحضرا يتمتع بالحرية في ظل الدستور والقانون[1] ثم

حياتنا المادية اوروبية خالصة في الطبقات الراقية . وهي في الطبقات الاخرى تختلف قربا وبعدا من الحياة الاوروبية باختلاف قدرة الافراد والجماعات وحظوظهم من الثروة وسعة ذات اليد . ومعنى هذا ان المثل الاعلى للمصري في حياته المادية انما هو المثل الاعلى للاوروبي في حياته المادية .

نتخذ من مرافق الحياة وادواتها ما يتخذون ، ونتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما يتخذون ، نفعل ذلك عن علم به وتعمد له او نفعل ذلك عن غير علم وعلى غير عمد ، ولكنا ماضون فيه على كل حال وليس في الارض قوة تستطيع ان تردنا عن ان نستمتع بالحياة على النحو الذى يستمتع بها عليه الاوروبيون . مدت اوروبا الطرق الحديدية واسلاك التلغراف والتلفون ، فمددناها ، وجلست اوروبا الى الموائد واتخذت ما اتخذت من آنية الطعام وادواته والوانه وصنعنا صنيعها . ثم تجاوزنا ذلك الى ما اصطنع الاوروبيون لانفسهم من لباس ، ثم تجاوزنا ذلك الى جميع الانحاء التي يحيا عليها الاوروبيون فاصطنعناها لانفسنا غير متخيرين ولا محتاطين ولا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن ، وما يلائم منها وما لا يلائم . ونستطيع ان نقول ان مقياس رقي الافراد والجماعات في الحياة المادية مهما تختلف طبقات عندنا انما هو حظنا من الاخذ باسباب الحياة المادية الاوروبية . وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها

---

(١) طه حسين . الادب الجاهلي ، ص ٥٤ ، وما يليها

والوانها الاوروبية خالصة. نظام الحكم عندنا اوروبي خالص، نقلناه عن الاوروبين نقلا في غير تحرج ولا تردد. واذا عبنا انفسنا بشيء من هذه الناحية فانما نعيبها بالابطاء في نقل ما عند الاوروبيين من نظم الحكم واشكال الحياة السياسية. وقد اضطربت حياتنا السياسية في هذا العصر الحديث ولا سيما في هذا القرن بين الحكم المطلق والحكم المقيد فلم يكن اضطرابها بين هذين النوعين من الحكم كما الفهما الشرق في القرون الوسطى، بمعنى ان نظام الحكم المطلق عندنا في العصر الحديث كان متاثرا بنظام الحكم المطلق في اوروبا قبل انتشار النظام الديمقراطي، وان نظام الحكم المقيد عندنا كان متاثرا بنظم الحكم المقيد في اوروبا ايضا. فالذين ارادوا ان يستبدوا بامور مصر في العصر الحديث كانوا يذهبون مذهب لويس الرابع عشر واشباهه اكثر مما كانوا يذهبون مذهب عبد الحميد وامثاله، والذين ارادوا ان يحكموا مصر حكما مقيدا بالعدل دون ان يشركوا الشعب معهم في الحكم كانوا يتخذون لحكمهم قيودا اوروبية لا شرقية . فهم قد انشاوا المحاكم الاهلية وشرعوا القوانين المدنية واستبقوا ذلك من النظم الاوروبية لا من النظم الاسلامية، وهم قد وضعوا النظم الادارية والمالية والاقتصادية وذهبوا في ذلك مذهب الاوروبيين، بل نقلوا ذلك نقلا عن الاوروبيين ولم يستمدوه مما كان مالوفا عند ملوك المسلمين وخلفائهم في القرون الوسطى ... فمجلس النظار او مجلس الوزراء ونظارات الحكومة او وزاراتها والمصالح المتصلة بهذه النظارات والوزارات كل ذلك اوروبي المصدر اوروبي الجوهر اوروبي الشكل لم يعرف منه المسلمون شيئا في القرون الوسطى، وقبل هذا العصر الحديث. وقد استبقيت اشياء من النظم الاسلامية القديمة لم يكن بد من استبقائها لانها تتصل بالدين من قريب او بعيد. ولكن كثيرا من التغيير والتبديل قد مسها حتى اصبحت شديدة التاثر بالنظم الاوروبية في شكلها على اقل تقدير. وقد يكون من النافع ومن الظريف ايضا ان يقارن بين محاكمنا الشرعية الان بعد ان تاثرت بالاصلاح الحديث وبين محاكمنا قبل ذلك حين لم تكن الا استمرارا للنظام الاسلامي القضائي القديم ... واكبر الظن ان قضاة المسلمين القدماء لو انشروا في هذه الايام لانكروا من نظام المحاكم الشرعية شيئا كثيرا ولعلهم ان ينكروا اكثر مما يعرفون! وقد استبقينا نظام الوقف ولكننا لم نلبث ان انشانا له وزارة وان ادرناه على نحو ما، اظن ان القدماء يعرفونه او يرضون عنه لو ردوا الى الحياة. ونحن مع ذلك ننكر وزارة الاوقاف ونراها مسرفة في التأخر مبطئة في التطور. بل هنا من ينكر شيئا غير قليل من نظام الوقف نفسه

فيريد الغاءه او تغييره ليلائم بين حياة الاسر وحاجات الاقتصاد الحديث . . . وقد استبقينا الازهر الشريف نفسه ولكن ازمة الازهر الشريف متصلة منذ عهد اسماعيل او قبله ولم تنته بعد. وما اظنها ستنتهي اليوم او غدا ولكنها ستستمر صراعا بين القديم والحديث حتى تنتهي الى مستقر لها في يوم من الايام. وكل شيء يدل بل كل شيء يصيح بان الازهر مسرف في الاسراع نحو الحديث، يريد ان يتخفف من القديم ما وجد الى ذلك سبيلا . . . ولو ان الله انشر علماء الازهر الشريف الذين كانوا يعيشون في اول هذا العصر الحديث، واراهم ما انتهى اليه الازهر من التطور لرغبوا الى الله مخلصين في ان يردهم الى اجداثهم حتى لا يروا هذه الاحداث العظام. كل هذا يدل على اننا في هذا العصر الحديث نريد ان نتصل باوروبا اتصالا يزداد قوة من يوم الى يوم حتى يصبح جزءا منها لفظا ومعنى وحقيقة وشكلا. وعلى اننا لا نجد في ذلك من المشقة والجهد ما كنا نجده لو ان العقل المصري مخالف في جوهره وطبيعته للعقل الاوروبي . . . ثم لم يقف امرنا عند هذا الحد فقد خطونا بعد الحرب الكبرى خطوات حاسمة ليس لنا من امل في ان نرجع عنها ولا من سبيل الى هذا الرجوع. وما اشك في ان كثرة المصريين مستعدة لان تبذل المهج والنفوس وتضحي بالحياة والاموال في سبيل المحافظة على هذه الخطوات التي خطوناها وعلى هذه الحقوق التي كسبناها. واين المصري الذي يرضى بان ترجع مصر عن هذه الخطوات التي خطتها في سبيل ~~المحافظة على~~ النظام الديمقراطي؟ واين المصري الذي يطمئن الى ان تعود مصر الى نظام للحكم يقوم على غير الحياة الدستورية النيابية؟ وهل الحياة الدستورية النيابية الا شيء اخذناه من اوروبا اخذا ونقلناه عنها نقلا فلم نكد نستمتع به حتى اتصل بحياتنا وامتزج بدمائنا واصبح حبه غذاء لنفوسنا وقواما لعقولنا وعنصرا من عناصر ضمائرنا. واني لاتخيل داعيا يدعو المصريين الى ان يعودوا الى حياتهم القديمة التي ورثوها عن آبائهم في عصر الفراعنة او في عصر اليونان والرومان او في عصرها الاسلامي، اتخيل هذا الداعي واسال نفسي: اتراه يجد من يسمع له ويسرع الى اجابته او يبطيء في هذه الاجابة ولكنه يجيب على كل حال؟ فلا ارى الا جوابا واحدا يتمثل امامي بل يصدر من اعماق نفسي، وهو ان هذا الداعي ان وجد لم يلق بين المصريين الا من يسخر منه ويهزأ به. والذين نراهم في مصر محافظين ومسرفين في المحافظة ومبغضين اشد البغض للتفريط في التراث القديم، هؤلاء انفسهم لن يرضوا بالرجوع الى العصور الاولى، ولن يستجيبوا لمن يدعوهم الى النظم العتيقة ان دعاهم اليها . . . ولم يقف امرنا عند هذا الحد بل نحن قد خطونا خطوات ابعد

جدا مما ذكرت. فالتزمنا امام اوروبا ان نذهب مذهبها في الحكم ونسير سيرتها في الادارة ونسلك طريقها في التشريع. التزمنا هذا كله امام اوروبا، وهل كان امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الامتيازات الا التزاما صريحا قاطعا امام العالم المتحضر باننا سنسير سيرة الاوربيين في الحكم والادارة والتشريع. فلو اننا هممنا الان ان نعود ادراجنا وان نحيي النظم العتيقة لما وجدنا الى ذلك سبيلا، ولوجدنا امامنا عقابا لا تجتاز ولا تذلل، عقابا نقيمها نحن لاننا حراص على التقدم والرقي، وعقابا تقيمها اوروبا لاننا عاهدناها على ان نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثـــة ... نحن اذن مدفوعون الى الحياة الحديثة دفعا عنيفا. تدفعنا اليها عقولنا وطبائعنا وامزجتنا التي لا تختلف في جوهرها قليلا ولا كثيرا منذ العهود القديمة جدا عن عقول الاوروبيين وطبائعهم وامزجتهم. وتدفعنا اليها المعاهدات التي امضيناها وابرمناها والالتزامات التي قبلناها راضين بل بذلنا في سبيلها جهودا لا تحصى، وضحينا في سبيلها بالانفس الذكية والدماء الطاهرة، وانفقنا في سبيلها كرائم الاموال واحتملنا في سبيلها دروب المحن والالام ... والتعليم عندنا، على اي نحو قد اقمنا صروحه ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الاوروبي الخالص ما في ذلك شك ولا نزاع. نحن نكوّن ابناءنا في مدارسنا الاولى والثانية والعالية تكوينا اوروبيا لا تشوبه شائبه. فلو ان عقول اباءنا واجدادنا كانت شرقية مخالفة في جوهرها وطبيعتها للعقل الاوروبي فقد وضعنا في رؤوس ابنائنا عقولا اوروبية في جوهرها وطبيعتها وفي مذاهب تفكيرها وانحاء حكمها على الاشياء. ولعمري اني لاتخيل داعيا يدعونا الى ان نعدل بمدارسنا ومعاهدنا عن الطريق الاوروبية التي سلكناها الى الطريق القديمة التي كان يسلكها اباؤنا واجدادنا ...

اني اتخيل داعيا يدعونا الى هذا فما ارى الا انا سنلقاه ضاحكين منه مستهزئين به وما ارى الا ان الازهريين وهم مستقر المحافظة سيكونون اكثرنا منه ضحكا واعظمنا به استهزاء! على ان مذاهبنا القديمة في التعليم قد كانت هي المذاهب التي كان يذهبها الاوروبيون ويتخذونها اصولا لحياتهم العقلية في القرون الوسطى. واكبر الظن بل الحق الذي لا شك فيه انهم قد اخذوا عنا هذه المذاهب كما ناخذ نحن عنهم اليوم وساروا سيرتنا كما نسير نحن سيرتهم اليوم. فالفرق بيننا وبينهم في حقيقة الامر لا يتصل بالطبائع الاشياء وجواهرها، وانما يتصل بالزمان ليس غير. بدأوا حياتهم الحديثة في القرن الخامس عشر واخرنا الترك العثمانيون، فبدأنا حياتنا الحديثة في القرن التاسع عشر. ولو ان الله عصمنا من الفتح العثماني لاستمر اتصالنا باوروبا ولشاركناها في نهضتها ولسلكنا معها الى الحياة الحديثة

نفس الطريق التي سلكتها، ولتغير وجه العالم ولكان للحضارة الحديثة شان غير شانها الان . على ان الله قد اراد بنا خيرا برغم الاحداث والخطوب. فقد بلغ العالم من الرقي طورا يمكننا من ان نبلغ في عصر قصير ما انفق الاوروبيون في سبيله عشرات السنين بل مئاتها. فويل لنا اذا لم ننتهز هذه الفرصة ولم نتنفع بهذا التوفيق.. (1)

هذا هو صاحب الايام في اهم نزعاته الفكرية، فهو ذو ميل شكي علمي والرافعي ايماني الاتجاه مسلم قبل كل شيء، الاول مع الغرب والثاني مع الشرق نزعتان متباينتان، فكان ما كان بينهما من اخذ ورد في خصومة مشهورة كادت تؤدي بقلب حكومة. فقد اثارت صخبا لا حول شخصين فحسب بل حول مبدئين من التفكير واكاد اقول حول دينين، وقد خرج الرافعي منتصرا في حينه مكسورا فيما بعد، وخرج طه حسين مكسورا في حينه منتصرا فيما بعد. ان الزمان لن يعترف للرافعي بعبقرية في هذا الميدان. ولا يهمني ان اعرف هنا هل كانت مزاعم طه حسين في الشعر الجاهلي صحيحة ام لا، فقد تكون على حق وقد لا تكون، ولكن الخطأ الذى ارتكبه الرافعي كونه لم يحترم حرية القول والفكر، لم يحترم نزعة الشك، وهي من اهم نزعات العقل وديدنها لا ايمان [illegible]، كونه لم ينظر الى المدنية الغربية بعين التجرد فانبهمت عليه حقائقها الخالدة ونواميسها الثابتة، لم يعر اذنا صاغية الى ما تشرعه محكمة العقل من رصانة في النقد وحرية في التفكير وعلم في الابحاث ...

<u>القضاء والقدر</u> = من اهم نتائج نزعة الرافعي الايمانية الرضوخ لمشيئة القضاء والقدر، واقتبال الحياة دون تذمر، وهي نزعة دينية بحتة قال =(ما اتينا الى هذه الدنيا الا ليمثل كل واحد منا فصلا من معاني الشقاء الانساني في تلك الثياب التي هي ملك لصاحب المسرح لا نخلعها ونلبسها بل يخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الاخر. فلسنا نبتدع ولكن يلقى علينا وما نحن بمخترعين ولكننا نحتذي، والرواية موضوعة تامة من قبل ممثليها وضعها ذلك القلم الاعلى الذى كتب مقادير كل شيء كان او يكون حتى تمحى من صفحة الارض هذه الاحرف السوداء المتحركة والساكنة ...

والمشكلة الانسانية الكبرى ان كل انسان يريد ان يكون بطل الرواية ومثلها البكر حتى ذلك الشخص الذى جيء به لتنزل عليه اللعنة في سياقها، غير ان الرواية مفصلة من قبل ويأتي فصل اللعنة كما هو باطرافه وحواشيه واسبابه ونتائجه فينصب على ممثله جملة واحدة على وجه لا يحس ولا يرى ولا يدفع كما يلبسه النوم فاذا هو يقتل فيه قتلا واذا رجل على اعين الناس باللعنة حال وباللعنة مرتحل ...

(1) طه حسين. مستقبل الثقافة في مصر ج 1 ص 71 وما يليها

(النوم والقدر والموت كالشئ الواحد او ثلاثتها اجزاء لشي واحد؛ فالنوم غفلة تخرج الحي هنيهة من الحياة وهو فيها على حالة اخرى، والموت غفلة تخرجه من الحياة كلها الى حالة اخرى. والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هيّنا على اهل السعادة باسلوب النوم ويجئ لاهل الشقاء عنيفا في اسلوب الموت، ولن يجلب شيئا او يدفع عن نفسه شيئا من هذه الثلاثة الا الذي لم يخلق على الارض، ذلك الذى يستطيع ان يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام، او يحفظ نفسه على الصغر والكبر فلا يموت، او يضرب بيديه على مدار الفلك فيمسكه ما شاء او يرسله. جئنا الى هذه الحياة غير مخيرين ونذهب غير مخيرين ان طوعا وان كرها، فمد يدك بالرضا والمتابعة للاقدار او انزعها ان شئت فانك على الطاعة ما انت على الكره وعلى الرضا ربما انت على الغضب، ولن تحرف في مذاهب القدر اذا انت اقبلت او ادبرت اي وجهيك هو الوجه فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك او مدبرا والمنفعة امامك، والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين ايهما شاء، وحري بما يوقن انه لم يولد بذاته ان لا يشك في انه لم يولد لذاته وانما هي الغاية المقدورة المتعينة فلا الخلق يتركونك لنفسك ولا الخالق تارك لك نفسك [1]

ومن هنا نرى عند الرافعي نزعة ابتكالية تدفعه الى قبوله الفقر في الحياة كوضع الهي لا مفر منه قال في كتاب المساكين (يزعمون اننا في عصر العلم وفي دهر القانون ويريدون ان يسلبوا الناس ايمانهم كأن الايمان هو مشكلة الانسانية مع انه لا حل لمشكلتها الا به. ان مسئلة الغنى والفقر وما كان من بابهما لا يحلها العلم ولا القانون اذ هي من مواد القضاء والقدر في انشاء الآلام والاحزان واضدادها التي تقابلها، وما دام فوق الانسانية من السماء قوة لا تحد وتحت الانسانية من القبر هوة لا تسد فلا نظام الا على تصريف النفس امرا ونهيا وتأويل الحياة معنى وغاية، فان لم يكن الشأن في ذلك مقرورا في الغريزة على جهة الايمان فلن يكون العلم والقانون على ظاهر النفس الا ثورة بما في باطنها، ولن يبرح الناس على ذلك بعضهم مع بعض كالهارب منه وهو مضطر اليه او كالمضطر اليه وهو هارب منه، وكل موكل في معنى من معاني النفس لا انسانية فيه [2].) وقال ايضا و

وانت ربما رايت الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا مسحة الدينار وعليه من نضرة هذه الحياة الوان الجنة والنار وما تشك في انه واسع البسطة عريض النعمة طيب المكسبة وهو على ذلك رقعة خلق في اذيال الفقر يجرورها على اقذار الحياة وادناسها، ولو نطق لهو الغنى لقال دعني فما كل ذي مقربة فقير ولا كل ذى منزلة غني والفضائل قائمة في الدنيا بالصغار والفقراء ولكن من نكد الدنيا ان عنوانها هم الكبراء وحدهم على ان اكثر هؤلاء لا تكون منهم في كل امة الا الطبقة المنحطة انحطاطا .... عاليا ...

فالناس مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقر اذا حصروه من جهاته الارضية وقد ترامت، وضيقوا من حدوده السماوية وقد تراحبت وانما هو طبقة معنوية فوق الارض وانما هو اسلوب خاص في نظام الكون ولا سبيل

---

(١) رسائل الاحزان وجه ٩.
(٢) كتاب المساكين وجه ٥

الى التمقيح والتحرير فيأساليب الله نصرفها عنمعانيها او نتكذب في تاويلها او نرد عليها ما ليس منها، وانما الشان كله ان نحسن الفهم عن اوضاع القدرة الالهية بمقدار ما نستبين فيها من الحكمة فان في ذلك صلاح انفسنا،وما جعل الله سبيل المصلحة والمفسدة الا من افهامنا حتى ان الازمنة لتعد من اكبر العلل فيأمراض التاريخ الانساني. وربما كانت العلة الكبرى في طائفة من الطوائف صورة اثرية لاكبر راس فيها ، فان نحن اسأنا الفهم او ذهبنا به المذاهب او افسدنا من تأويل حكمة الله او غيرنا او بدلنا فذلك واقع بنا لا يعدونا وما يستولي على الكون من جهلنا اضطراب ولا تلحقه آفة في وضع من اوضاعه وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون ... .فليكن الفقر والحسد والطمع والبخل ولكن برضا يمنع السخط وسكون يكسر شرة النفس ورفق لا يعنف على الحق واعتدال يقر كل شيء على حده. وبعدئذ يجد الانسان في كل نزوة من نزوات جنونه شيئا من الحكمة،او على الاقل شيئا يمكن من بعض الوجوه ان يسمى في باب المنفعة الانسانية حكمة ...(١)

الطفولية = والتسليم بالقضاء والقدر ميل طفولي الى حد ما، ولذلك نرى الرافعي يكثر الكلام عن الطفولية باقوال خالدة تخرج عن قلب هو نفسه طفل وظل طفلا في كبره ثم مات وهو طفل. والطفولية هي الصفاء النقاء والاستسلام الى الحياة بفطرة بيضاء كما تقتضيها الحياة قبل ان تكفهر بغيوم العقل المتسائل كثيرا، هي الزمن الضاحك، هي السهولة قبل ان تتعقد ، هي النظر الى الدنيا بغير البحث فيها كمًا وعقلاً. والذى يطالع الرافعي تتضح له هذه النزعة قوية فيه. ولا عجب فالايمان طفولة والطفولة استسلام ورضوخ والاستسلام بعد عن كل ما هو شك،لذلك لم يشك الرافعي يوما من الايام بحقيقة ايمانه، ولذلك كان طفلا في حياته الفكرية. وهو السبب الذي جعل من ادبه اجمل ترنيمة لتلك الحالة الطفولية في حياة المرء، وقد تجسمت هذه النزعة كثيرا في مقالته (اجتلاء العيد) بكلام كأنه باقات من الزهور البيض ملؤها الجمال، فاسمعه وما رايت اجمل منه كلاما عن طفولة الانسان = (هؤلاء الاطفال الذين هم السهولة قبل ان تتعقد . والذين يرون العالم في اول ما ينمو الخيال ويتجاوز ويمتد، يفتشون الاقدار من ظاهرها، ولا يستبطنون

(١) كتاب المساكين وجه ١٢

كيلا يتالمون بلا طائل، وياخذون من الاشياء لانفسهم فيفرحون بها ولا ياخذون من انفسهم للاشياء كيلا يوجد لها الهم ... قانعون يكتفون بالثمرة ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها. ويعرفون كنه الحقيقة وهي ان العبرة بروح النعمة ولا بمقدارها. فيجدون من الفرح في تغيير ثوب للجسم، اكثر مما يجده القائد الفاتح في تغيير ثوب للملكة ...

هؤلاء الحكماء الذين يشبه كل منهم ادم اول مجيئه الى الدنيا حين لم تكن بين الارض والسماء خليقة ثالثة معقدة من صنع الانسان المتحضر ... حكمتهم العلياء ان الفكر السامي هو جعل السرور فكر واظهاره في العمل، وشعورهم البديع ان الجمال والحب ليسا في شيء الا في تجميل النفس واظهارها عاشقة للفرح ... هؤلاء الفلاسفة الذين تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية وهي ان الاشياء الكثيرة لا تكثر في النفس المطمئنة، وبذلك تعيش النفس هادئة مستريحة كأن ليس في الدنيا الا اشياؤها الميسرة ... اما النفوس المضطربة باطماعها وشهواتها فهي التي تبتلى بهموم الكثرة الخيالية ... ومثلها في الهم مثل طفيلي مغفل يحزن لانه لا ياكل في بطنين ... واذا لم تكثر الاشياء الكثيرة في النفس، كثرت السعادة ولو من قلة، فالطفل يقلب عينيه في نساء كثيرات ولكن امه هي اجملهن وان كانت شوهاء ... فامه وحدها هي ام قلبه ثم لا معنى للكثرة في هذا القلب، هذا هو السر خذوه ايها الحكماء عن الطفل الصغير ...

وتاملت الاطفال واثر العيد على نفوسهم التي وسعت من البشاشة فوق ملئها، فاذا لسان حالهم يقول للكبار: ايتها البهائم اخلعي ارسانك ولو يوما، ايها الناس انطلقوا في الدنيا انطلاق الاطفال يجدون حقيقتهم البريئة الضاحكة، لا كما تصنعون اذ تنطلقون انطلاق الوحش يوجد حقيقته المفترسة، احرار حرية نشاط الكون ينبعث كالفوضى ولكن في ادق النواميس، ينثرون السخط بالضجيج والحركة فيكونون مع الناس على اختلاف، لانهم على وفاق مع الطبيعة ... وتحتدم بينهم المعارك ولكن لا تتحطم فيها الا اللعب .... اما الكبار فيصنعون المدفع الضخم من الحديد للج اللين من العظم، ايتها البهائم اخلعي ارسانك ولو يوما ... لا يفرح اطفال الدار كفرحهم بطفل يولد، فهم يستقبلونه كانه محتاج الى عقولهم الصغيرة ... ويملؤهم الشعور بالفرح الحقيقي

الكامن في سر الخلق لقربهم من هذا السر، وكذلك تحمل السنة ثم تلد للاطفال يوم العيد؛ فيستقبلونه كانه محتاج الى لهوهم الطبيعي ... ويملؤهم الشعور بالفرح الحقيقي الكامن في سر العالم لقربهم من هذا السر .. فيا اسفنا علينا نحن الكبار ما ابعدنا عن سر الخلق باثام العمر، وما ابعدنا عن سر العالم بهذه الشهوات الكافرة التي لا تؤمن الا بالمادة، يا اسفنا علينا نحن الكبار ما ابعدنا عن حقيقة الفرح، تكاد اثامنا والله تجعل لنا في كل فرحة خجلة .... تكاد اثامنا والله تجعل لنا في كل خير ايتها الرياض المنورة بازهارها ايتها الطيور المغردة بالحانها، ايتها الاشجار المصفقة باغصانها، ايتها النجم المتلألئة بالنور الدائم، انت شتى؛ ولكنك جميعا في هؤلاء الاطفال يوم العيد.(١)

ما اجملها كلمات في الطفولة ترش ندى السماء على قلوب المؤمنين وتهبط كالصاعقة على عقول الكافرين. ما اجمل هذا البيان الخارجي عن نفس لا يمكنها ان تكون غير طفلة لتاتي بمثله ولا استحجر القلم وجف مداده ما اعذبها اغنية يترنم بها الرافعي دائما فيسبح الخالق فيها ويتغنى باسمى المعاني الانسانية. طفولة القلب هي وضوح الايمان وجلاء الغامض عن معلومه، واستكانة الروح في مهب الاعاصير ومثار الشكوك، وقول الانسان لربه لتكن مشيئتك لا مشيئتي. ومتى ادرك الانسان الطفولية الروحية آمن بوجود قوة لا منظورة تدبر كما تشاء الحوادث والامور كالحائك خلف نوله يدخل اللحمة والسداة حسبما يراه ملائما لمشيئته لا حسبما يراه الخيط العاجز عن ادراك مرامي الحائك ومقاصده ... واسمع ما اجمل قوله عن الطفل (يجد(٢) الطفل على كل حالة وفي كل مكان سرور نفسه لسبب واحد، هو ان ابتسامه ابدا معه، فهو لم يملك من الوجود شيئا بعد ثم ولكنه اغنى من عليها بهذا الكنز الذي خبأته السماء فيه لينفق منه فيما لا تبيع كنوز الارض ولا تشتري، ولو لا هذا الابتسام في هؤلاء الاطفال وانه على افواههم كالنبض في قلوبهم لما نفعتهم نافعة في تحصيل النمو للجسم، والصبر للطبيعة، والاستقرار للعاطفة، والهدوء للنفس، والسهمة للعقل، ولضغطت الحياة اجسامهم ونفوسهم اللينة في قوالب معانيها المحدودة الضيقة المصبوبة من الضجر والالام والهموم فما يكبر من بعدها على الارض طفل ابدا. ولكن ابتسامهم سراح من كل قيود المادة هو اشعة الهبة تذيب ما حول القلب الصغير من المعاني الضاغطة عليه ولو كان كل معنى روح جبل صخري من الهم ... ولا تزال الجنة مع الطفل حتى اذا كبر قيل له كما قيل لآدم اهبط منها..

(١) وحي القلم الجزء الاول وجه ١٩

(٢) اوراق الورد وجه ٩٤

اكل ادم من الشجرة ولا شيء يضيع في الكون فاين الحلاوة التي ذاقها في الجنة، هي في افواه الاطفال ... ويتبسم الطفل ويضحك ونحسب ذلك على مقداره . كلا انه وان يكن طفلا صغيرا في ملء جلده وعلى وزن جملته، ولكن مادة ابتسامه على مقدار الطبيعة كلها لان عظمة الكون هي التي تراه بهذا الاسلوب الصغير . هو لا يحيا في العالم بل في معاني نفسه، وبذلك هو دائما فوق الدنيا ..)

نزعته الافلاطونية: لا يخلو تفكير الرافعي من نزعة افلاطونية او مثالية يستشفها القارئ من وقت الى آخر. فهذا التغني دائما بعالم فوق هذا العالم هو تفكير افلاطوني الى حد ما. والنزعة الافلاطونية جلية عند الرافعي بمثل قوله: (ومن ثم يصلنا العشق من جمال الحبيب بجمال الكون ويشيء لنا في هذا العمر الانساني المحدود ساعات الهية خالدة تشعر المحب أن في نفسه القوة المالئة هذا الكون على سعته، فتعمر النفس حينئذ في سبحات اللذة الروحية من الجميل الى الجمال الى الطبيعة الى الله جلا جلاله ...)[1] لا اجزم في قولي ان الرافعي قد اطلع اطلاعا واسعا على الفلسفة اليونانية عموما والافلاطونية خاصة، فقد يكون ذلك وقد لا يكون ولا اقول جازما لأن الرافعي اخذ مثل هذا المعنى عن افلاطون، فقد يكون ذلك وقد لا يكون، ولكن الذى اراه ولا شك فيه هو ان هذه النزعة في الصعود من الخاص الى العام، من الجميل الى الجمال، هي نزعة تكشف عن نَفَس افلاطوني، ولكن ذلك لا يخولنا ان نذهب بعيداً في قولنا بان الرافعي تلقح بالافلاطونية، والحقائق ملك للجميع، لا سيما والرافعي يبغض الفلسفة ولا يدين بغير القرآن ولا يرى الحقيقة الا في نبيه. لذلك لم يستطيع الاخذ عن الفلاسفة، ولذلك لم يكن له تفلسف خاص به. وهذا واضح في مثل قوله (فليس ينتظر العالم انبياء ولا فلاسفة ولا مصلحين ولا علماء يبدعون له بدعا جديدا، وانما هو يترقب من يستطيع ان يفسر له الاسلام هذا التفسير، ويثبت للدنيا ان كل العبادات الاسلامية هي وسائل عملية تمنع الاخلاق الانسانية ان تتبدل في الحي فيخلع منها ويلبس، اذا تبدلت احوال الحياة فصعدت بانسانها او نزلت، وان الاسلام يابى على كل مسلم ان يكون انسان حالته التي هو فيها من الثروة او العدم، ومن الارتفاع او الضعة، ومن خمول المنزلة او نباهتها، ويوجب على كل مسلم ان يكون انسان الدرجة التي انتهى اليها الكون في سموه وكماله، وفي تقلبه على منازله بعد أن صفّي في شريعة بعد شريعة وتجربة بعد تجربة وعلم بعد علم)[2]

---

(١) اوراق الورد وجه ٩٦

(٢) وحي القلم الجزء الثاني وجه ٨٠

القصة عند الرافعي

لعبت القصة دورا كبيرا في ادب الرافعي لا سيما بعد احتكاكه بالناس عن طريق الرسالة التي جلته من رجعيته المتطرفة، مع انه لم يتماد كثيرا في ميدان القصة لانها لا تستحق حسب اعتقاده ان تكون الغاية التي يجب على الاديب ان يوجه قبلته نحوها هذا ما كان يعتقده لذا لم يعرها انتباهه ولم يعمل على تغذيتها والسير بها الى ذروة الكمال. ومن هنا قوله يوم سئل لماذا لا يكتب القصة (انا لا اعبأ بالمظاهر والاعراض التي ياتي بها يوم وينسخها يوم اخر، والقبلة التي اتجه اليها في الادب انما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها فلا اكتب الا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ولذا لا امس من الآداب كلها الا نواحيها العليا. ثم انه يخيل الي انني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القران ولغته وبيانه فانا ابدا في موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانيه وما يكلفه وما يحاوله ويفي به وما يتحاماه ويتحفظ فيه، وتاريخ نصره وهزيمته في اعماله دون سواها. وكيف اعترضت الجيش رايته فن نفسه لا فنك انت ولا فن سواك اذ هو الطريقة وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ)[1] وقد يتبادر الى ذهن القارىء ان الرافعي يكره القصة لانها قصة، غير ان الواقع عكس ذلك. فقد كان (يملك طبيعة فنية خاصة في القصة يعرفها من يعرفه في احاديثه الخاصة بينه وبين اصحابه حين كان يتعمد العبث والتسلية، فيطوى من الحديث وينشر ويكتم ويورى ويورد الخبر غير مورده ويهزل ولا يقول الا الجد، ويطوى النادرة الا اخر الحديث، ويقول في اخر المقال ما كان ينبغي ان يكون في اوله. وكان له الى ذلك تعبير رشيق وفكاهة رائعة يخترعها لوقتها لاتملك معها الا ان تضحك وتدع التوقر المصنوع، وان له في هذه الفكاهة لمذاهب عقلية بديعة تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المتزنة وسخريته اللاذعة، ويكاد كثير من مقالاته لا يكون برهانا على ذلك، فقلما تخلو احداها من دعابة طريفة او نكتة مبتكرة. وهذه هي كل ادوات القاص الموفق، فما ينقصه الا ان يدرس فن القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرزين. ولكن الرافعي كان يجهل طبيعة نفسه، وكان له في كتابة القصة ما قدمت من الراي، فكان تخلفه من هذين)[2].. قال الرافعي في هذا الصدد (لم اكتب في القصة الا قليلا اذا انني اردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم، ولكني مع ذلك لا اراني وضعت كل كتبي ومقالاتي الا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذى في راسي وهذا

(1) وحي القلم الجزء الثالث وجه ٢٠٠

القلب الذى بين جنبي)[1] ولكن نغمة الرافعي موجهة الى الذين يأخذون القصة سبيلا للهو ونحن نعمل اليوم في الشرق (لمعالجة اللهو الذى جعل نصف وجوده السياسي عدما وباطلا، ولملء الفراغ الذى جعل نصف حياة الانسانية موتا. هذا الضرب من القصة هو هو لرجالنا ونسائنا اذا قرأوه وتلهوا به اشبه بادخال اولئك الرجال والنساء - ادخالهم وادخالهن على الكبر - في مدارس ورياض الاطفال. الاطفال يستلذون الحكاية بالفطرة لانها تجيئهم بالدنيا التي يعسر عليهم ان يذهبوا اليها او يغامروا فيها، وتهيء لهم ان يشعروا خيالهم قوة الخلق فهتكوت لذتهم على مقدار من بعد هذه الدنيا عنهم وعلى مقدار مثله من طبيعة العجز من خيالهم، وهذا الضعف في الناحيتين هو بعينه الذى يجعل لأكثر القصص شأنا عند سخفاء الناس وفراغهم، واهل الحمق فيهم، يشعرهم شهوات وخيالات واوهاما من الباطل. فذلك اذاً ليس ادبا يكتب ويقرأ، بل هو بلاء اجتماعي يطبع ويوزع في الناس (٢). ان كتابنا يحترفون القصة ولا يعيشونها، لذا لا يستمدونها من صميم الحياة ولا يبتغون الفن لاجل الفن. وغايتهم في ذلك الاسفاف لا الترفع والسمو. فرواياتهم كلها زائفة لا رصانة فيها ولا عمق من حيث تفهم الحياة، فتحس وانت تقرأ احداها بدأت تنحدر بك عوض عن ان ترفعك الى فوق والى فوق. ومن تلك الروايات xx الروايات توضع قصصا ثم تقرأ فتبقى قصصا، وان هي صنعت شيئا في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات تكون مسكنات عصبية الى حين، ثم تنقلب هي بنفسها بعد قليل الى مهيجات عصبية)[٢] والرافعي لاينكر عبقرية القصة، ولا يتجاهل قيمتها الحية التي يمكن ان تؤديها الى المجتمع الانساني. ففيها ادب يسمو بك (ولكن هذا الادب العالي لا يكون الا باخذ الحوادث وترتيبها في الفضيلة كما يربي الاطفال على اسلوب سواء في العلم والفضيلة. فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون وطريقة محكمة، وغاية معينة، ولا ينبغي ان يتناولها غير الافذاذ من فلاسفة الفكر الذين الذى تنصبهم مؤهبهم لالقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تثير الحياة او تثيرها الحياة، والاعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من ادبهم قوة الترجمة عما بين النفس الانسانية والحياة، وما بين الحياة ومواتها النفسية في هؤلاء وهؤلاء، تتخيل الحياة فتبدع اجمل شعرها، وتتأمل فتخرج اسمى حكمتها، وتشرع فتضع اصح قوانينها. واما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص لهم في الادب رعاع وهمج كان من اثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم من فوضى الغرائز هذه الغرائز المقوتة التي لو حققتها في النفوس لما رايتها الا عامية روحانية منحطة تتسكع

(١) وحي القلم الجزء الثالث ص ٢٠٠

(٢) الرسالة عدد ٤٠ في ٩ ابريل سنة ١٩٣٤ السنة الثانية ص ٥٦٩

(٣) الرسالة " " " " " " " " " " ٥٦٩

فيها النفس مشردة في طرق رزائلها. اذا قرأت الرواية الزائفة احسست في نفسك باشياء بدأت تسفل، واذا قرأت الرواية الصحيحة اردكت من نفسك اشياء بدأت تعلو. تنتهي الاولى فيك باثرها السيء وتبداء الثانية منك باثرها الطيب، وهذا عندى هو فرق ما بين فن القصة وفن التلفيق القصصي (١). هذه هي النظريات الرافعية في القصة عامة، لا سيما كتابنا الذين احترفوها.

اما قصصه فهو لم يتعمدها بل كان يقصها كما تاتي في مهب الاتفاق والمصادفة غير عامل على تتبع قوانينها واساليبها. وهي تتميز بطابعين قويين الطابع التاريخي الديني والطابع الاجتماعي.

١ = الطابع التارخي = كان الرافعي يعتمد على حادثة من حوادث التاريخ الاسلامي لينشيء قصته. وقصصه التاريخية كثيرة منها قصة (روءية في السماء) و (قصة زواج) و (سموالحب) (والانتحار) و (اليمامتان) و (زوجة امام) و (بنته الصغيرة) يرجع فيها الى اصل يستند اليه من رواية في التاريخ او خبر مهمل في زاوية لا يتنبه له الا من كان له مثل طبيعة الرافعي الفنية واحساسه ويقظته على ان اهم ما اعانه على ذلك هو عندى صلته الروحية بهذا الماضي وشعوره بالحياة فيه كانه من اهله ومن ناسه، فان له بجانب كل حادثة وكل خبر من اخبار ذلك الماضي قلبا ينبض كانه له فيه ذكرى حية من ذكرياته تصل بين ماضيه وحاضره، فما يقرؤه تاريخا كان وانطوت ايامه ولكنه يقراء صفحة من ماضيه ما يزال يحس فيها احساس الحي بين اهله، فما اهون عليه بعد ان يترجمها من لغة التاريخ الى لغة الاحياء (٢) غير ان النزوع الى تاريخ الاقدمين لم يكن هدفه الاوحد، فهو يحاول قبل كل شيء ان يجد فكرة ما اوحكمة من الحكم او مغزى ادبيا خلقيا، ومن ثم يرجع الى بطون التاريخ ليرى الحادثة التي يمكنه اخذها اطارا لهذه الفكرة. لذلك لا يجوز لنا ان ننظر الى هذه الحوادث التي سردها في قصصه الدينية كوقائع ثابتة من حيث الصحة التاريخية، فهو لا يفكر في الحادثة اول ما يفكر ولكن في الحكمة والمغزى والحديث والمذهب الادبي ثم تاتي الحادثة من بعده. فكان اذا همّ ان ينشيء قصة من القصص جعل همه الاول ان يفكر في الحكمة التي يريد ان يلقيها على السنة التاريخ- على طريقته في انشاء المقالات- فاذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى في تحديد الفكرة الى ما يريد كان بذلك قد انتهى الى موضوعه، فليس له الا ان يفكر في اسلوب الاداء وسواء عليه بعد ذلك ان يؤدي موضوعه على طريقة المقالة او على طريقة القصة، فكلاهما ينتهيان به الى هدف واحد؛ فاذا اختار ان تكون قصة تناول كتابا من كتب التراجم الكثيرة بين يديه، فيقراء منها ما يتفق حتى يعثر باسم

---

(١) الرسالة عدد ٤٠ في ٩ ابريل سنة ١٩٢٤ السنة الثانية وجه ٥٧

(٢) سعيد العريان، حياة الرافعي وجه ٢٠٨

من اعلام التاريخ، فيدرس تاريخه، وبيئته، وخلانه، ومجالسه، ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذى اعده من قبل؛ وانه ليلهم احيانا ويوفق في ذلك توفيقا عجيبا، حتى تاتي القصة وكانها بنت التاريخ وماللتاريخ فيها الا نادرة يرويها في سطور، او الاسماء الرجال ...

على ان البديع في ذلك هو قدرة الرافعي يرحمه الله على ان يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ، فيحس احساسه ويتكلم بلسان اهله، حتى لا يشك كثير من يقراء قصة من قصص الرافعي في انها كلها صحيحة من الالف الى الياء ... واحسب ان الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عمد واختيار فلم يكن ثمة ما يدفعه الى معالجة القصة واختيار طريقة فيها - ورايه في القصة رايه - ولكنه مذهب اتفق له اتفاقا بلا قصد ولا معاناة؛ وانما تاتي له ذلك من طريقته التي اشرت اليها في الحديث عنه عندما يهم بالكتابة؛ فقد اسلفت القول انه يحرص على ان يعيش وقتا ما قبل الكتابة في جو عربي، فيتناول كتابا من كتب الادب القديم يقراء منه فصلا ما قبل ان يشرع في املاء مقاله؛ فمن هنا كان اول الطريق الى مذهبه في القصة. ولكل شيء سبب. واحسبه لما هم ان يكتب عن (المعجزة المالية) في تقاليد الزواج ومن فلسفة المهر وقد اجتمعت له الفكرة في ذلك تناول كعادته كتابا من كتب العربية يقراء فيه ما تيسر، فاتفق له في مطالعته ان يقراء قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وابي وداعة؛ فرآها اشبه بموضوعه وفيها تمامه، فبدا له ان يؤدى موضوعه هذا الاداء فكانت قصة. واذكر انه لما دعاني ليملي علي هذه القصة قال لي في لهجة الظافر ..." لقد وقعت على نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثا لا اعرف ابلغ منه في موضوعه" ..فمن ذلك اعتقد ان اول هذا المذهب في القصة كان اتفاقا غير مقصود صادف طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فنا جديدا (١).. اذا القينا نظرة على هذه القصص التاريخية فنا نراها تدور في معظمها حول الزواج بمعناه السامي، كيف انه باب الى السمو الانساني. فقد حكى هذه الفكرة على لسان سعيد بن المسيب في قصة (زواج) وعلى لسان عطاء بن ابي رباح وعبد الرحمن القس بن عبد الله بن ابي عمار الزاهد في قصة (سمو الحب) وتحدث عن ملك بن دينار والحسن البصري في قصة (بنته الصغيرة) وعن الامام ابي محمد سليمان الاعمش في (زوجة امام) . وفي هذه القصص عدا فكرة الزواج طابع ديني يبشر الرافعي من خلاله بالخلق السامية واتباع قوانين الشريعة الاسلامية. وهو كثيرا ما يبداء القصة بمثل هذا الاسلوب (حدث احمد بن مسكين الفقيه البغدادى قال (٢). (وحدثني المسكين فيما حدث وهو يصف ما نزل به قال ...)

---

(١) سعيد العريان . حياة الرافعي وجه ٢٠٧
(٢) وحي القلم الجزء الثاني وجه ١٨٠
(٣) " " " " ١٧٢

من اعلام التاريخ فيدرس تاريخه وبيئته وخلانه ومجالسه ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذى اعده من قبل وانه ليلهم احيانا ويوفق في ذلك توفيقا عجيبا حتى تاتي القصة وكانها بيت التاريخ واللتاريخ فيها الا نادرة يرويها في سطور او الاسماء الرجال ... على ان البديع في ذلك هو قدرة الرافعي يرحمه الله على ان يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ فيحس احساسه ويتكلم بلسان اهله حتى لا يشك كثير من يقراء قصة من قصص الرافعي في انها كلها صحيحة من الالف الى الياء ... واحسب ان الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تاليف القصص عن عمد واختيار فلم يكن ثمة ما يدفعه الى معالجة القصة واختيار طريقة فيها وراءيه في القصة راءيه ولكنه مذهب اتفق له اتفاقا بلا قصد ولا محاولة وانما تاتي له ذلك من طريقة ما التي اشرت اليها في الحديث عنه عندما يهم بالكتابة فقد اسلفت القول انه يحرص على ان يعيش وقتا ما قبل الكتابة في جو عربي فيتناول كتابا من كتب الادب القديم يقراء منه فصلا ما قبل ان يشرع في املاء مقاله فمن هنا كان اول الطريق الى مذهبه في القصة ولكل شيء سبب واحسبه لما هم ان يكتب عن المعجزة المالية في تقاليد الزواج ومن فلسفة المهر وقد اجتمعت له الفكرة في ذلك تناول كعادته كتابا من كتب العربية يقراء فيه ما تيسر فاتفق له في مطالعته ان يقراء قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وابي وداعة فراءها اشبه بموضوعه وفيها تمامه فبدا له ان يؤدى موضوعه هذا الاداء فكانت قصة واذكر انه لما دعاني ليملي علي هذه القصة قال لي في لهجة الظافر ... لقد وقعت على نادرة مدهشة من التاريخ فتحدث عن فلسفة المهر حديثا لا اعرف ابلغ منه في موضوعه ...فمن ذلك اعتقد ان اول هذا المذهب في القصة كان اتفاقا غير مقصود صادف طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فننا جديدا ... اذا القينا نظرة على هذه القصص التاريخية فننا نراها تدور في معظمها حول الزواج بمعناه السامي كيف انه باب الى السمو الانساني فقد حكم هذه الفكرة على لسان سعيد بن المسيب في قصة زواج وعلى لسان عطاء بن ابي رباح وعبد الرحمن القس بن عبد الله بن ابي عمار الزاهد في قصة (سمو الحب) وتحدث عن ملك بن ~~xxxx~~ دينار والحسن البصرى في قصة بنته الصغيرة وعن الامام ابي محمد سليمان الاعمش في (~~زوجته~~ زوجة امام . وبهذه القصص عدا فكرة الزواج طابع ديني يبشر الرافعي من خلله بالخلق السامية واتباع قوانين الشريعة الاسلامية وهو كثيرا ما يبداء القصة بمثل هذا الاسلوب حدث احمد بن مسكين الفقيه البغدادى قال ... وحدثني المسكين فيما حدث وهو يصف ما نزل به قال ...

(١) سعيد العريان وحي ٢٠٧
(٢) وحي القلم الجزء الثاني وحي ١٠٨
(٣) ——— ١٧٢

(قال راوي الخبر)[1] .. اما اسلوبه في القصة فهو صعب لا يدرك بقراءة واحدة لما فيه من الاستعارات والمجازات والنحت والايجاز، كما هي عادة الرافعي في كل ما كتبه. فهو اسلوب تأملي لا يقف بك فيه عند حد السرد التسلسلي عن الحوادث والاخبار. فاذا قال فكرة من الافكار تامل فيها ونسج حولها واعظا متفلسفا، وكذلك يبعدبك عن سير الحادثة ليعود بعد هذا اللف الى اكمال القصة. فانظر كيف يتأمل في هذه الحياة ويحكي افكاره في معنى الانتحار على لسان الامام الشعبي في قصة (الانتحار) واعظا شخصا اراد التخلص من هذه الدنيا قال (فمن آمن بالله فكانما قال له امتحني وكيف تراك اذا كنت بطلا من الابطال مع قائد الجيش، اما تفرض عليك شجاعتك ان تقول للقائد: «امتحني وارم بي حيث شئت» واذا رمى بك فرجعت منخنا بالجراح ونالك البتر والتشويه، اتراها او صافا لمصائبك، ام ثناء على شجاعتك؟ ثم قال اذا لم يكن الايمان بالله اطمئنانا في النفس على زلازلها وكوارثها، لم يكن ايمانا، بل هو دعوى بالفكر او باللسان لا يعدوهما، كدعوى الجبان انه بطل، حتى اذا فجأه الروع احدث في ثيابه من الخوف. ومن ثم كان قتل المؤمن نفسه لبلاء او مرض او غيرهما كفرا بالله وتكذيبا لايمانه، وكان عمله هذا صورة اخرى من طيش الجبان الذي احدث في ثيابه. والايمان الصحيح هو بشاشة الروح، واعطاء الله الرضى من القلب، ثقة بوجده ورجاء لما عنده، ومن هذين يكون الاطمئنان. وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء يصبح الايمان عقلا ثانيا مع العقل؛ فاذا ابتلي المؤمن بما يذهب معه الصبر ويطيش له العقل، وصار من امره في مثل الجنون، برز في هذه الحالة عقله الروحاني وتولى سياسة جسمه حتى يفيق العقل الاول. ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته في الآخرة فيغمر به خوف النفس من الفقر او المرض او غيرهما فيقتل اقواهما الاضعف، ويخرج الاعز منها الاذل. فالاطمئنان بالايمان وقتل الخوف الدنيوي بالتسليم) والرضى او تحويله عن معناه بجعل البلاء ثوابا وحسنات او تجريده من اوهامه باعتبار الحياة سائرة بكل ما فيها الى الموت؛ وهو بهذا عقل روحاني له شان عظيم في تصريف الدنيا يترك النفس راضية مرضية تقول لمصائبها وهي مطمئنة: نعم وتقول لشهواتها وهي مطمئنة لا ... وما الانسان في هذا الكون؟ وما خيره وشره؟ وما سخطه ورضاه؟ ان كل ذلك الا كما ترى قبضة من التراب تتكبر وقد نسيت انه سياتي من يكنسها[2])

هكذا يستطرد د الرافعي في الكثير من قصصه فيشرد عن مجرى الحوادث ليقف قليلا على ذروة عالية من ذروات الفكر مطلا على بعيد الحياة في معانيها السامية، ثم يعود بك بعد هذا الدوران في الاقصى الى حيث قطع تتابع القصة، ولا ارى في ذلك عيبا فهو اسلوب اعاظم الروائيين في اداب

---

(١) وحي القلم الجزء الثاني وجه ٢٧٢
(٢) وحي القلم الجزء الثاني وجه ١٠٢

الامم الراقية لان الروائي الحق انما هو ذلك الذي يأخذ الحوادث التاريخية ذريعة له لاظهار معنى من معاني الحياة وهكذا كانت غاية الرافعي .

الطابع الاجتماعي = وهناك نوع اخر في قصص الرافعي يتسم بطابع اجتماعي كقصة (السطر السطر الاخير من القصة) و (الطفولتان) و (الشيطان) و (عروس تزف الى قبرها)

واعني بكلمة الطابع الاجتماعي انها مقتبسة من صميم الحياة الواقعية . فقد كانت نفس الرافعي كعدسة الة التصوير سريعة في التقاط المشاهد التي تمر على مسرح كل يوم فلم يكن يمر به حادث بالم له او يقع له حظ يسر به الا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان ، وكانما كل ما في الحياة من مسرات والام مسخر لفنه ، فهي للناس مسرات والام وهي له اقدار مقدورة ليبدع بها ما يبدع في تصوير الحياة على طبيعتها وفي شتى الوانها ليزيد بها في البيان العربي ثروة على تبقى على العصور ، وهو اخلاص للفن لم اعرفه في احد غير الرافعي (١) كانت حياته اليومية ذاتها توحي القصة له وما عمله من ثم الا ان يسبغ عليها فنه وادبه البياني الرائع . واجدني مضطرا في مثل هذا الموقف الى ان اعتمد مطولا على كتاب الاستاذ سعيد العريان (حياة الرافعي) كي اظهر الاسباب الاجتماعية التي دفعت به لكتابة بعض قصصه قصصه المستمدة من صميم الحياة اليومية . والاستاذ العريان مؤرخ سيرة الرافعي لازمه في حياته التي وقف على الكثير من لحمتها وسداتها . لذلك لا ارى مانعا من الاعتماد على كتابه وقد رجعنا اليه اكثر من مرة في سياق هذه الدراسة . بهذه الطريقة يمكننا ان نعرف زمان بعض القصص و مكانها .

قصة الطفولتان = قال الاستاذ سعيد العريان (١) (كان الرافعي قلما يجلس الى مكتبه في المحكمة الا ان يكون له عمل فاذا لم يجد له عملا في المحكمة انصرف لوقته الى حيث يشاء غير مقيد بموعد من مواعيد الوظيفة وكان يزورني احيانا في المدرسة ليقضي معي وقتا من الوقت او ليصحبني لبعض حاجته وكان يغبطني على عملي ويزعم انه لو كان في مثل هذا الجو المدرسي لوجد لنفسه كل يوم مادة تلهمه الفكرة والبيان ويعجب كيف لا اجد في صحبة هؤلاء الصغار الذين يعيشون في حقيقة الحياة ما يوقظ في نفسي معنى الشعر والحكمة والفلسفة ... وزارني يوما وكان من تلاميذه في المدرسة طفل في العاشرة ابوه من ذوي الحول والسلطان فكان يصحبه شرطي كل يوم الى المدرسة ويعود به وكان فتى لدنا فيه طراوة وانوثة وله دلال وصلف . فاتفق ان حضر الي لشأن ما والرافعي معي ووقف الشرطي ينتظره على مقربة من مجلسنا ونظر الرافعي اليه وقد وقف يكلمني وهو يتثنى ويتخلع لا يكاد يتقار في موضعه ... ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطي وراءه يحمل حقيبته والتفت الرافعي الي يسالني .... وبين تلاميذك كثير من مثل هذا (الشمعون) وكلمة الشمعون عند الرافعي هي علم مشترك لكل فتى جميل ، وتاريخ هذا الاسم قديم يرجع الى ايام صلة الرافعي بالمرحوم الكاظمي اذ كان الكاظمي له صديق من

(١) سعيد العريان حياة الرافعي . ص ٢٢٢

٩١

من الغلمان يحبه ويؤثره ويخصه بالسر ... وكان اسمه شمعون حدثني الرافعي عنه وكان فتى جميلا لولا ثياب الغلمان لحسبته انثى ... ورآه الرافعي كثيرا في صحبة الكاظمي فوعى اسمه وصورته ثم كان اسمه عند الرافعي من بعد علم من على كل علام متانف ... قلت للرافعي هذا ابن فلان الحاكم وهذا الشرطي الذي يتبعه هو جنود ابيه وان من خبره ...قال الرافعي وهذا موضوع جديد .. فهذا كان سبب انشائه قصة (الطفولتان)

ب ــ قصة الشيطان : قال الاستاذ سعيد العريان[1] ((وكان الرافعي يؤمن بالغيب ايمانا عميقا لا ينفذ اليه الشك .وكان له عن الشياطين والملائكة وعن الوحي والالهام وعن تجاوب الارواح في اليقظة والنوم احاديث ينكرها كثيرا من شباب هذا الجيل ... " ... وكان له ــ الى ايمانه وتدينه ــ نزوات بشرية تعقبها التوبة والندم فكان اكثر وقته على تربص دائم من وسوسة الشيطان فكان اذا مرت امامه امراة فاتبعها عينيه او سمع حديثا عن غائب فتعقبه بالحديث عن بعض شانه او ناله احد بمساءة يردها اليه استعاذ وحوقل وقال هذا من عمل الشيطان واذا همت نفسه بشيء تنكره المروءة اودعته داعية من هواه الى ما يتحرج منه العون او صرفه شان من شئون الحياة عن واجب من واجبه حمل نفسه على ما لا تحتمل واكثر على نفسه ما همت به او دعت اليه او انصرفت عنه وذم الشيطان وتجنه عليه الذنب وفي مقالته (دعابة ابليس) حديث يحقق هذا المعنى ... فاني لعنده ذات مساء اذ جاءه البريد برسالة من آنسة في دمشق ومعها صورتها مهداة اليه تبثه راجية واشجانها وتشكو اليه انها ... مفتقرة الى رجل .ونظر الرافعي الى صورة الفتاة فاطال النظر ووقف الشيطان بينه وبين الصورة يحاول ان يزيدها في وهمه حسناً الى حسن ويرسم له خطة ... ثم وضع الرافعي الصورة في غلافها وهو يقول اعوذ بالله من الشيطان ... اما انه ... وقال شاب في المجلس : " وهل الشيطان الا هوى النفس" وقال الرافعي وهل تنكر ... وطال الجدل ومضى الحديث في فنون ... من هذا الحديث وهذه الحادثة كانت مقالته "الشيطان"))

ج ــ الجمال البائس : قال الاستاذ سعيد العريان[2] ((كان ذلك في صيف ١٩٣٥ وكان الرافعي يصطاف في سيدى بشر ثم كان يقصد الى الاسكندرية احيانا ليلقى صديقه السياسي الاديب الاستاذ حافظ ... فان بينهما لصلات من الود ترجع الى نحو عشرين سنة منذ كان الاستاذ حافظ محاميا في طنطا ... وكان صديقه يقضي اجازته في الاسكندرية مشغولا بكتاب يهم ان يصدره في شان من شؤون الاسلام وكان الرافعي يعاونه في انشائه ... وكانا يتواعدان على اللقاء في ملهى من ملاهي الاسكندرية على شاطئ الحر حيث تتهيأ لهما الفرصة من هدوء المكان في النهار وقلة اقبال الناس عليه لما لهما فيه من عمل في هذا الملهى .كانت تعمل فرقة الراقصة المشهورة "ببا" فيعج كل مساء بمن يفد اليه من طلاب اللهو والهوى ليفرغ للرافعي وصاحبه في النهار يداولان الرأي في شؤون الادب والدين والفلسفة . وشتان ليله ونهاره. وكثر تردد الرافعي وصاحبه على هذا الملهى حتى الفهما المكان والفا ما فيه والفهما فيمن الف فتاة من راقصات الفرقة هي الايطالية الحسناء " ب" فما كان بينها وبين الرافعي الا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب ... وجلس الرافعي اليها يتحدثان ذات نهار وكشفت له عن صدرها وكشف لها فكان بينهما حديث طويل شهده الاستاذ حافظ من بدايته الى منتهاه ،ثم ترك الرافعي لهواه وتركه صاحبته ... وذاق الرافعي مرة اخرى لوعة الحب وبرحاء الهوى وكانت محبوبته الاخيرة راقصة من بنات الهوى تعمل في مسرح هزلي من مسارح الصيف المتنقلة بين شواطئ الاسكندرية ...

تلك هي صاحبة الجمال البائس"))

---

(١) سعيد العريان . حياة الرافعي ص ٢٤٠

(٢) " " " ص ٢٢٥

الرافعــي الشــاعــر .

قال الاستاذ سلامه موسى في مقال له عن الرافعي ما يلي «يمتاز شعر الرافعي بقوة الصنعة وحسن النظم ، ولكن خياله مع ذلك عربي تقليدى . تعرف ذلك من تشبيهه صفحة البدر بصفحة الامرد وضوء الفجر برونق الصارم؛ هذا الى خلوه من مثل اعلى يتوخاه. ونقول بعبارة اخرى انه يجيد الصنعة اكثر مما يجيد الفن»[1].
حكم صائب على الرافعي الشاعر . فقد امتاز شعره بالمتانة والقوة وبذلك كان مقلداً للاقدمين، اما الخيال عنده فهو باهت الى حد بعيد، كانك وانت تقرأ شعره امام هيكل عظيم لا صفوة بيانية فيه، ولا عذوبة تترقرق في ثناياه . ولا ادري كيف اعلل عبقريته الخيالية في نثره البياني الذى تفوق به على شعره . فقد عجز في هذا الاخير عن اداء تلك اللوامع في باطنه . ولا بد للقارىء عندما يترك نثر الرافعي ليبدأ بشعره من الاحساس بانه يهبط من علو شاهق الى مهوى سحيق كانه القي من سماء الى حضيض . فاين تلك الصناعة الرمزية الشفافة في نثره؟ اين ذانك الجناحان المتعاليان في فضاء البيان الصافي؟ كله شعره خاليا منها الا في قليله ، حتى لاكاد امسك عنه كلمة شاعر لاقول عنه بانه قراض فقط . لم يحد الاستاذ سلامى موسى عن جادة الحق بقوله انه يجيد الصنعة اكثر مما يجيد الفن . فبقدر ما يبدع في نثره يسف في شعره ، وقد يكون ذلك مسبباً عن قانون نفساني يقضي على من يبدع في شعره الا يجيد النثر ، وعلى من يحلق في نثره الا يبدع بشعره . وهو سؤال كثيراً ما طرحته على نفسي وانا ادرس الرافعي في شعره وفي نثره لعظم الفارق القائم بين الناثر والشاعر فيه . وهي ظاهرة بسيكولوجية نجدها مراراً عند الادباء وهي التي حدت بالقلقشندى على القول في هذا الصدد : «من قوي نثره ضعف نظمه ومن قوي نظمه ضعف نثره وقلما يتساويان»[2] ولكني ارجع الى نفسي واقول لاعجب في ذلك فقد نظم الرافعي عندما كان في طوره الاول ناهجاً على طريقة القدماء بالفاظه وصوره كما حصل له هذا ايضا في ميدان النثر خلال المرحلة الاولى من حياته الادبية . لذلك لن يخلد الرافعي بشعره ولن يبقى من ديوانه ما تتباهى به الاجيال المقبلة ، فهو مقصر في هذه الحلبة وعاجز «عن ان يصب في قصيدة من الشعر ما كان يستطيع ان يكتبه بسهولة مقالا من مقالاته الشعرية الرائعة التي يعرفها قراء العربية فيما قرءوا للرافعي . والحق ان الرافعي بطبعه شاعر في الصف الاول من الشعراء ، لا اعني الشعر المنظوم فذلك ميدان قد سبقه فيه كثير من شعراء العصر بل اعني الشعر الذى هو التعبير الجميل عن خلجات النفس وخطرات القلب ووحي الوجدان ووثبات الروح . ولقد كان - رحمه الله - بما فيه من اعتداد بالنفس - يكتب المقالة الفني المصنوع فيتنقى لفظه بمعناه ويربط اوله بآخره ويجمع بين اطرافه كلما ينبض به قلبه من معاني السرور والالم والرجاء والياس والرغبة والحرمان . فاذا فرغ من انشائه جلس يترنم به ويعيده

---

(١) الهلال مجلد ٣٢ سنة (١٩٢٣-١٩٢٤) وجه ٤٠٤
(٢) الجزء الثاني صبح الاعشى وجه ٣٠٨

على سمعه الباطني ثم لا يلبث ان يلتفت الى جليسه قائلا أسمعت هذا الشعر، أرايت شاعرا في العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعاني في قصيدة منظومة ... هذه العبارة التي كان يسمعها جلساء الرافعي كثيرا تفسر لنا قول الرافعي ان في الشعر العربي قيودا لا تبيح له ان ينظم بالشعر ما يريد ان يعبر به عن نفسه الشاعرة، او تؤيد ما ادعيه انا من انه كان يشعر بالعجز عن ابانة كل خواطره الشعرية في قصيدة من المنظوم ولا يعجزه البيان المنثور نعم كان شعر الرافعي اقوى من اداته وكانت قوالبه الشعرية تضيق عند شعوره[1] ./.

ان اكثر شعر الرافعي نزوع نحو القديم كما تظهره هذه القصيدة النموذجية مثلا قال يصف الاصيل واقبال الليل ...

ثوب السماء مطرز بالعسجد	وكأنها لبست قميص زبرجد
والشمس عاصبة الجبين مريضة	تصفر في منديلها المتورد
حسدت نظيرتها فاسقمها الاسى	ان السقام علامة في الجسد
ورأت غبار الليل ينفض فوقها	في الافق فانطبعت كعين الارمد
ومضى النهار يشق في انواره	حزنا واقبل في رداء اسود
فتهللت غرر النجوم كانما	كانت لضاحية السماء بمرصد
وكأنها عقد تناثر دره	من جيد غانية ولم تتعمد
والافق بين مفضض ومذهب	كالجيد بين معطل ومقلد
وكأن صفحة بدره اذ اشرقت مصقـ	ـقولة الخدين صفحة امرد
وكأن ضوء الفجر رونق صارم	نضيت صحيفته ولما تغمد[2]

ان تشبيهه صفحة البدر بصفحة الامرد وضوء الفجر برونق الصارم، ثم قوله عن العقد (ان دره يتناثر من جيد غانية ولم تتعمد) هذا كله ينقلنا الى جو الشعراء الاقدمين. وقد كان الرافعي ينسج على منوالهم معنى ومبنى في هذه المرحلة الاولى من حياته الادبية. لذلك نراه يطبع على غرارها في اكثر اشعاره. وقال ايضا يصف ساحة الحرب ...

ونقع دجوجي ترى السحب فوقه	لما راعه من برقه تتقطع
اذا انفرجت للريح فيه طريقة	نجت وبها حمى تئز وتسطع
وان طالعته الشمس تذهل فلا ترى	امخربها في النقع ام ذاك مطلع
وقد كشفت تلك العجوز نقابها	وقالت لاهليها قفوا ثم ودعوا
والقى الردى صيحاته دافعا بها	لذاك فم الموت اسمه اليوم مدفع
على عصبة لم يظلموا غير انهم	مفاتيح اما قيل اغلق موضع
تعاطوا كؤوس الموت في حومة الوغى	وذاك رنين الكاس بالكاس تقرع[2]

---

(١) محمد العريان حياة الرافعي ص ٥٦

(٢) الديوان [illegible]

فاتت تحس في مثل قوله (ونقع دجوجي) ثم (وقالت لاهليها تفوا ثم ودعوا) بريح تهب عليك من الملفي.
وهكذا يعمل في اكثر ما ينظمه ناسجا على منوال الغابرين. غير اننا نلمح في شعره بعضا من الابداع من وقت الى آخر كما نرى ذلك في قصيدته التي يصف فيها البحر والسماء حيث قال ...

على السماء وفوق الشمس اشعاري ... وتحت اصداف هذا اللج افكاري
وبين تلك وهاتا قد جرى قلمي ... بمعجز الوصف من در وانوار
ارى جمالا تعالى ان الم بـه ... وجل خالقه من مبدع بـاري
كانما الكون غيداء محجبـة ... تطل مشرقة من خلف استـار
فالبحر مقلتها والبر حاجبهـا ... من فوقه جبهة زينت باقمـار
اوكان ذا البحر ديباج السما وقد اذ ... حل الوشاح فها صدر السما عاري
او هذه لبست من ليلها حلـلا ... ومن كواكبها زرت بازرار
او انما الشمس ظنت انها خطفت بال ... بالحسن ابصار قوم دون ابصار
وحالت الارض دارا للسما فلـذا ... اقامت البحر مراة بذي الدار
يا مسكن الشهب الزهراء كم عجب ... بمعدن الضرر الغرا واسرار
ان تحملي فلكا قد دار دائـره ... فدونك اللج دوار بـدوار

...

ما للخضم اراه كاشرا فوهـا ... يخدش الارض من لج باظفـار
مجردا في تدجيه صفيحتـه ... مستوفزا بين بتار وتيـار
يقيمه الموج حردا ثم يقعـده ... ما بين منسحب منه وجرار
والافق مكتئب حينا ومبتسـم ... ما بين ليل دجوجي واسحـار
يا ايها الناس ان البحر موعظـة ... وضجة البحر ليست غير انـذار
فكم عليكم به لله من حجـج ... والذنب يغفر الا بعد اعـذار
الحر الين شيء ملمسا فـاذا ... خاشنتموه بلوتم اي جبـار
ولو تساند كل الخلق ما قدروا ... يحبسوا موجة من موجه الجـاري
فكيف يجحد رب البحر بدرتـه ... وذلكم اثر من بعض اثار
امنت باللـ ما شيء اراه سدى لكنها ... لكنها حكم تجري باقـداري (١)

ان في هذه القصيدة نفحة شعرية عذبة تهب على القارىء من مجمل هذه الابيات لا سيما الخاتمة التي تحمل في ثناياها روح موعظة جميلة. والرافعي يجيد الحكمة عندما يصيغها في قالب شعري، والجزء الاول من ديوانه لا يخلو من بعض اللامعات الشعرية كما في هذا المقطع مثلا ...

---

(١) الديوان الجزء الثاني ص ٦٦

يا محبا يمشي على الارض والار   ض تضم الحبيب تحت التراب
تحتوى الظرف والجمال قلبا   فيه سر الهوى وسر الشباب
انما الزهر من حبيبك هذا   كتب عطرها سلام الغياب[1]

ثم انظر الى هذا الموشح للغناء وعنوانه على البعد :

يا نسيم الفجر يا طفل الربى   لاهيا فوق اراجيح الشجر
كلما اختال على الارض كبا   فترامى بين احضان الزهر
خذ لمن اهوى على البعد نبا   ان جهد الشوق في البعد خبر
انت يا من فيك انسى من انا   بعد زتب الدهر فينا لا عليك[2]

الا ترى رمزية شفافة عذبة وابداعا في مثل قوله (ان جهد الشوق في البعد خبر) وحين قوله (انت يا من فيك أنسى من انا). فلا بد للقارئ من ان يجد عند الرافعي بعض اللمحات الشعرية البديعة الممتازة كما في قصيدته عن لبنان مثلا عندما قال يصفه :

غفل الزمان هناك من غفلاته   ففررت للذات من الامي
في كل منزلة وكل ثنية   يضع الهوى قمرا يضيء امامي
وعلوت حتى عن اماني الحيا   ة وغبت حتى غبت عن اوهامي
افق يطل على الحياة وهمها   اطلال مغفرة على الاثام
لبنان فن في الطبيعة قائم   دقت محاسنه على الافهام
متكبر حتى على اكبارها   متعظم حتى على الاعظام
قمم تخطى بالسماء كانها   في الكون اقتلة على الابهام
جبل اذا وصفوا الرواسي لم يكن   ابدا لظدر الارض غير وسام[3]

ان الرافعي يحلق في مثل هذه القصيدة ، ولكن نَفَسه قصير لا يطول في جميع اشعاره ، لذلك لا يصلح شعره بوجه عام ان يكون خالدا الا في اقل قليله ...

---

(١) الديوان الجزء الاول ص ٢٢
(٢) " " " " ٢٢
(٣) رسائل الاحزان ص ٦٨

ان نقد الرافعي يشبه هجاء القدماء بهم كانوا يتراشقون سهام السباب، فقد ظهرت عصبيته الجامحة في هذا الميدان النقدي باجلى مظاهرها، وبرز حاقدا ساخطا ينحرف عن الجدل المنطقي والبحث العلمي، وهجماته معروفة في تاريخ الادب ضد طه حسين والعقاد، فقد يكون الحق بجانب الرافعي وقد لا يكونه، غير انني لا أوافقه على الطريقة التي هاجم بها خصومه، لان النقد الرسمي في عرفي لا يكون سبابا بل يتوخى الواقع من الحسنات والسيئات على حد سواء دون التطرق الى الشخصيات والتنكيل بها، هذا ما لم يفعله الرافعي وسأمر في هذا الفصل مرا سريعا جدا كما قلت في المقدمة عارضا بعض نماذجه النقدية ليرى القارئ حد الغضب الجامح الذي ذهب اليه الرافعي باسلوبه الجارح، فاسمعه كيف ينتقد الدكتور طه حسين ... (ان طه حسين هذا مجموعة اخلاق مضطربة وافكار متناقضة وطباع زائغة وما من عالم في الارض الا وانت واجد اراءه قائمة بمجموع اخلاقه اكثر مما هي اتية من صفاته العقلية، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح (ان اخوف ما اخاف على امتي كل منافق عليم اللسان) وطه رجل ارسلوا لسانه وقلبه الى اوربا فرجع بلسانه وترك قلبه هناك في خرائب روما ..... فيجب ان يكون نفاقه وثرثرته مقصورين على نفسه ويجب ان تحمي الجامعة طلبتها منه ويجب ان ينهض علماؤنا في الزام هذه الجامعة ان تعلن براءتها من اراء استاذها حتى لا يزيد به احد فتبقى قيمته وقيمة ارائه كما هو في نفسه وأهون به لا كما هو بالجامعة ولعظم بها ..)[1]

وقال ايضا (والامر الثاني الذى نخشاه من طه انه اداة اوربية استعمارية تعمل في افساد اخلاق الامة وحل عروتها الوثقى من دينها في ادبه ولغته وكتابه وتحقير كل من يتسم بشيء من ذلك عالما او متعلما او متورعا، فهو دائب في ازالة ما وقر في نفوس المسلمين من تعظيم نبيهم وكتابهم وايثار دينهم وفضيلتهم واجلال علمائهم وسلفهم مرة بالتكذيب ومرة بالتهكم ومرة بافساد التاريخ ومرة بنقل الاخلاق الفاحشة المتهمرة من مدنية الفرنسيين وهلم جرا، حتى كانه شيطان عاقبه الله فطمره في جلد انسان)[2]

وقال ايضا (النجاة النجاة ايتها الامة فلو استطاعت الجامعة المصرية ان تجعل هذا المغرور طه حسين ترد على الميت عمره وينقله من قبره ويجعله تلميذا في الجامعة يكفر بابراهيم واسماعيل ومحمد صلوات الله عليهم - لما امكنها ان ترد على ملحد ايمانه الضائع ولا على شاك يقينه الذاهب، وهذا لو انها تكفر ابناء المسلمين بالعلم وللعلم فكيف والامر كله جهل في استاذها وسقوط في نفسه وضعف في عقله وسوء تقليد منه او تقليد سوء، وهو رجل لا يعرف علته الفلسفية ولا يدرك انه منهزم امام الحس فهو يهدم ويخرب بقانون طبيعي فيه لانه اشعل من داخله لينفجر من داخله، ولما منعته الحياة ان

---

(١) تحت راية القرآن ص ١٦٨

(٢) " " " " " ٢٠١

ان يحبث بحواسه[1] ذهب عيشه كله الى فكره وتسلط على لسانه فهو رجل قانونه الطبيعي انه مهما ياخذ يفسد ومهما يدع يصلح ..)[2] اقف عند هذا الحد فهي مشاحنات في ميدان الادب سيطويها النسيان. هي موجة مرت على ادبنا الحديث اكسبته طابعا جديدا من النقد الجارح ولكنه باب يجب علينا ان نغلقه .

---

(١) قال الرافعي (لعل المعري اراد فلسفة هذا المعنى حين قال من نفسه:

عمى العين يتلوه عمى الدين والهدى   فليلتي القصوى ثلاث ليال

(٢) تحت راية القرآن وجه ٢٥٠.

الـرافـعـي ذاك الاديـب المجهـول

عندما اقدمت على كتابة هذه الرسالة عن مصطفى صادق الرافعي لم اكن قد وقفت بعد على اراء الناس فيه والاثر الذى تركه في الاوساط الادبية . كنت اظن انى هناك من يشاطرني هذا الاعجاب الذي اكنه في نفسي لصاحب " اوراق الورد " ويرى فيه ما اراه من قوة في التعبير وبعد في التفكير . وكم كانت دهشتي عظيمة عندما رايتني منفردا بهذا التقدير مع فئة ضئيلة جداً . غير ان ذلك لم يفتّ من عزيمتي للمضي الى النهاية، بل زادني ايمانا به لانه اشبع نهما في عقلي للتفكير وشوقاً في ذوقي للتعبير . ولا تنكب عن القول بانه اديب الخاصة لا العامة، والخاصة عندنا قليلة بعد، اذ الجمهور لا يصبر على المعاناة ولا يملك قوة التعمق في مشاكل الحياة . فلا عجب اذا راينا الرافعي مجهولا او مكروها، فذلك نصيب كل عبقرية فذة تُبرِقُ الى الناس لوامع وجدانية اقوى مما يتحملون، فتاتي ثم تذهب وكانها لم تات ولم تذهب الى ان يمر على عقول الناس زمن طويل تنضج فيه وترهف الاذان لسماع هذه النداءات البعيدة، وتتمرس النفوس لالتقاط هذه اللمحات من الاغوار . اجل لا اريد اخفاء اعجابي كما صرحت بذلك مرات، ولن استطيع ذر الرماد على عيني . غير اني لا ادع هذا التقدير يطغي على ما يتطلبه موقفي من برهنة وتحليل، لذا اراني مضطرا في نهاية هذه الرسالة الى اظهار الاسباب التي جعلت الرافعي مجهولا او مكروها . وقد رايتها اربعة احدثت حسب ما اظن شقة بين الناس وبينه :

١ - <u>سيره على غرار الاقدمين :</u> قلت في سياق الحديث عن ادبه انه ذو طابعين مختلفين احدهما تقليدي وهو الذي عرف به اول ما عرف، والثاني خلاق وهو الذى طلع به على الناس في مرحلته الثانية من حياته الادبية. ولما كان الطابع التقليدي هو الاسبق في تاريخ الرافعي ، فقد عرفه الناس رجعيا قبل ان يعرفوه مجدداً، مما طبع في اذهانهم صورة اديب متحزلق يغرق في انتقاء الالفاظ . والفكرة متى غارت بجذورها وتمددت ثم تمكنت اطنابها في النفس تصبغ الاشياء بالوانها، فلا يعود الانسان من ثم قادرا على رؤية الاشياء في ذاتها، بل يخمنها كما تتراى له من خلال ميوله . هكذا كانت حالة الرافعي مع الناس، فقد جلته (الرسالة) بعد ان نزلت الى ميدان الصحافة، وشذبت الاسجاع من اسلوبه، ولينت من صلابة الالفاظه، ولطفت من بيانه حتى شفّ وبان عن ابعاد فكرية خالدة برونق في التعبير، وحسن سبك افحم بهما الادباء واعجز، ولكن كان قد سبق السيف العزل، فهو المقلد المكروه. هكذا تطلق اكثر الاحكام عليه دون ان يكون قد أُطلع على اسلوبه المبدع في مرحلته

الادبية الثانية، فيساق الواحد منا بما يسمع عنه أو بما يكون قد رسب في ذهنه من ادبه المقلد ...

ب ـ صعوبة ادبه : ادب الرافعي ادب فكر بليغ وبلاغة مفكرة. فهو من الذين ينتزعون الحقائق انتزاعا من بعيد الغور ويسكبونها في قالب من الكلام المنحوت بازميل البيان والايجاز. لذلك يجهد ادبه الاذهان كما اجهد الرافعي عينه. ففي تعبيره الموجز تفكير مسهب، وفي قبض الفاظه بسط معانيه. تراه يعبر عن بواطن الاشياء باداء يومئ ولا يوضح، ويدفعك الى التأمل معه في امور الحياة بعبارة فنية كانها دورة خلق وتركيب كما يقول هو . ومن هنا كانت الالفاظ لا تعطيك ما هو بائن في وضوح المعلوم بل ما غائب في غموض المجهول، فترى ذاتك وانت تقرأ معظم منثوره بين حقيقة افكار ازلية وجمال اسلوب بليغ، بين مفكر واديب. لذا صعب الرافعي وغمض، ولكنها صعوبة سهلة وغموض واضح لمن اوتي ملكة التامل والنظر الى البعيد.

غير ان عصرنا هذا هو عصر سرعة وتجارة، واهله اقرب الى مطالعة القصص السهلة منهم الى اقتناء المجلدات الحكمية والروائع الفلسفية، والناس عندنا لم يألفوا الامعان والصبر والغوص الى الاعماق، فاذا ترك لواعيتهم الباطنية شيء مما لم يقل كي يبحثوا عنه بذاتهم في ذاتهم نفروا كارهين، لانهم لا يريدون ان يشاطروا المفكر بتفكيرهم والشاعر بشعورهم والبياني بخيالهم « فالسرعة والصحافة والتطفل هي البلايا الثلاث التي تكابدها البلاغة في هذا العصر »(1) واول ما يلاحظه القارئ في ادب الرافعي تماسك في اللغة يدعو الى الامعان، وشفافة في البيان تدعو الى التبحر، وغوص وراء الحقائق يدعو الى التفلسف. والامعان والتبحر والتفلسف مزايا لم يألفها الوسط الشرقي بعد، وبذلك يكون الرافعي قد سبق زمانه وسما على مكانه ليلج حلقة الذين هم فوق الزمان وفوق المكان ...

ج ـ نقده اللاذع : لقد هاجم الرافعي خصومه . وكان في جولاته النقدية ذا عصبية سريعة الهيجان للذود عن لغته ودينه وشرقيته في عصر اخذ الفكر الغربي يتسرب شيئا فشيئا الى الشرق موقظاً نزعة الشك الديكارتي في قلوب الادباء والمفكرين، مزعزعا الايمان، دافعا الناس الى التساؤل عن حقيقة تاريخية الاداب في بعض عصورها كما صرح بهذا طه حسين. لذلك نرى الرافعي، وهو المسلم العربي الشرقي قبل كل شيء، لا يتنكب امام شكوك طه مثلا في الشعر الجاهلي عن ان يجرد قلمه لينهال باللائمة عليه، فكان لاذعاً باسلوبه النقدي الى حد بعيد، جارحاً بغضبيته تلك التي أُرجِعُها حسب ظني الى مزاجه العصبي السريع التهيج. لذلك

---

(1) من كلام احمد حسن الزيات في كتابه دفاع عن البلاغة وجه ٥

خرج نقده مؤلمًا طابعًا في اذهان الناس صورة ذميمة عنه افسدت عليهم النظر الى ادبه من حيث انه ادب صافي البيان رفيع الخيال. ولا بد للانسان من ان يتأثر بالافكار التي تكون قد تحكمت بجذورها في داخله، لذا احجم عنه الجمهور لانه رجعي يغلظ بنقده ويقسو. هذا ما يدعون ...

د- <u>تسخيره الادب في سبيل الدين</u> : حسب الرافعي نفسه مرسلا للدفاع عن القرآن. فكان اديبا لدين خاص وشرقيًا قبل كل شيء. وذلك معناه تسخير الادب لنزعات خاصة. غير ان الكاتب الحق هو الذي يتجه بادبه الى قدس اقداس نفس الانسان الشاملة فلا يحصر قبلته في دين او وطن لانه في الحقيقة متناول الناس جميعًا ينهلون من ينبوعها العذب.

ولكن الرافعي الخاص كثيرا ما كان يطغى على الرافعي العام، فنفرت منه عقول الناس التي لم تجد فيه طابع الشمول. وعلى الرغم من ذلك لا يخلو ادبه من نزعات انسانية هي التي ستبقيه وديعة في هيكل الخلود. فقد استطاع ان يكتب ما لو نُقل الى غير اللغة العربية لظل خالدا، وما لو قرأه غير المسلم لظل خالدا، وما لو اطلع عليه الغربي لظل خالدا ايضا. وقد كانت غايتنا نحن في هذه الرسالة ان نُخرج قدر المستطاع هذا الرافعي اللامحدود من الرافعي المحدود ...

مصطفى صادق الرافعي وادبه .

بقلم كمال يوسف الحاج

لقد كانت غايتنا في هذه الرسالة ان نعطي الرافعي مركزه الادبي الحق ، لاننا رأينا هذا الاديب مجهولا في بعض الاقطار العربية لا سيما لبنان . فاردنا بذلك ان ندرس الاسباب التي تضافرت على طمس معالم ادبه وان نستخلص ما هو خالد في ادبه لما سيطويه النسيان . وقد ارجعنا هذه الاسباب الى اربعة ذكرناها في اخر الرسالة في فصل خاص بعنوان الرافعي ذاك الاديب المجهول. وهذه الاسباب هي كما يلي :

١ - سيره على غرار الاقدمين في بدء حياته الادبية فتقعر وتحذلق في لغته وسجع كثيرا . وبذلك كان ادبه ادب لغة في معظمه .

٢ - كون ادبه ادبا صعبا بعيد الغور في معانيه يجهد الذهن ويرمي بالقارئ الى اقصى الفكر الوجدانية. والشرقيون لم يتعودوا على هذا النوع من التأدب . فهم اقرب الى مطالعة القصص السهلة منهم الى اقتناء المجلدات الحكمية والروائع الفلسفية .

٣ - نقده اللاذع لامثال طه حسين وعباس محمود العقاد ، الامر الذي طبع في اذهان الناس صورة مشوهة عنه . لانه كثيرا ما كان يخرج على قوانين الحشمة والخلق .

٤ - تسخيره ادبه في سبيل الدفاع عن اللغة العربية ولا سيما الدين الاسلامي . وهذا في نظرنا يحط من كرامة الادب الذي يجب عليه ان يوجه قبلته نحو الانسانية الشاملة .

بعد ان مهدنا لدراستنا بمقدمة وجيزة قلنا فيها اننا نكتب عن الرافعي على ضوء شعورنا لا على ضوء ما قاله الاخرون ، اتينا بفصل خاص على عرض مقتضب لاشهر مؤلفاته كاوراق الورد ،

والسحاب الاحمر ، وحديث القمر ووحي القلم ، واعجاز القرآن ... الخ . ومن ثم انتقلنا الى البحث في ادبه فدرسنا اولا نظريات الرافعي في الادب كيف انه شرع قواعد يجب على كل اديب حسب اعتقاده ان يسير على غرارها كي يخلد . وهذه الدعائم المشرعة هي :

١ - المجهول — اي تركيز الادب على عالم ما بعد الطبيعة عالم الفكر والروح . وبذلك يرتفع الاديب الى درجة الفيلسوف .

٢ - المثالية — اي تصوير الطبيعة على ضوء النزعات الانسانية وبث كهارب الحياة في الجماد وجعله ذا شعور واحساس .

٣ - الالهام — اي ان الاديب لا يتوصل الى افكاره عن طريق المنطق بل هناك قوة خفية تلعب دورها في ابراق المعاني له هي ذهن سماوي تفرض عليه فرضا .

٤ - الاسلوب — اما الاسلوب فهو الميدان الذي يتمكن فيه الاديب من اظهار شخصيته لانه وليده ولذلك قيل الانشاء انما هو الانسان عينه . وقد درسنا في هذا الفصل الذي خصصناه للاسلوب جولات الرافعي البعيدة المدى لانه من اكثر الذين اعاروه قسطا وافرا من العناية . فاستعرضنا الكلمة ورايه فيها ثم تمسكه باللغة العربية . ثم اللغة بين التوقيفية والمواضعية ومن ثم انتقلنا الى دراسة ابواب ثلاثة هي الحرف ، الكلمة ، الجملة ، وبذلك نكون قد بحثنا في موسيقية اللغة حتى اذا انتهينا من هذا العمل طرقنا باب البيان ، وهو كما حدده الرافعي صور نفسية في الطبيعة وصور طبيعية في النفس .

ثم انتقلنا بعد هذه الجولة في نظريات مصطفى صادق الرافعي الى دراسة ادبه في ذاته . فاظهرنا كيف انه اجتاز مرحلتين كان خلال الاولى منهما اقرب الى القديم وكان في الثانية منهما

اقرب الى الحديث . فقلد الاولين في بادئ حياته الادبية من حيث السجع وتوخي التحذلق في انتقاء الالفاظ . وقد اثرت عليه هذه النزعة التقليدية كثيرا اذ طبعت في ذاكرة الجمهور ان الرافعي رجعي بحت .

اما في المرحلة الثانية من حياته الادبية فقد تراجع عن الكد وراء السجع وحوشي الكلام وبهذا كان مجددا في بيانه الرمزي .

١ الرافعي الفيلسوف : في ادب مصطفى صادق الرافعي نواح وجدانية هي التي اطلقنا عليها كلمة فلسفة فلسفة الرافعي فهو ولوع بالتبحر في مظاهر الوجود متهوس بالالتفات الى الحياة التفاتا وجدانيـــــا . غير ان فلسفته لا تخرج عن كونها اتباعا لاحكام القران . وابرز ما يميز نواحيه الوجدانية .

١ - نزعته الايمانية . فقد سخر للدفاع عن الدين بوجه عام لا سيما القران . وهو يضع القلب فوق العقل والايمان قبل المنطق . واذا كان يسلم بقوة المنطق في بعض الاحيان وتفوق العقل فنزعته الايمانية هي الغالبة في ادبه . وهذا التمسك بالدين راجع لنشاته الدينية في اسرته التي طبعته بروح القران .

٢ - حبه للمراة - كان مصطفى صادق الرافعي روحاني النزعة في حبه للمراة فهو لا ياخذ منها الا تلك الناحية التي توصل الانسان الى عتبة الدين .

٣ - شرقيته وموقفه من الغرب . والرافعي شرقي قبل كل شيء لا يرى في الغرب الا تمدنا فاسدا وحياة شك ومادة . وقد قادنا هذا البحث الى القاء لمحة سريعة على بعض اقوال الدكتور طه حسين بهذا الصدد . فاظهرنا عنده النزعة الشكية الديكارتية التي تستهدف العقل والمنطق . وهي نزعة معاكسة تمام المعاكسة لنزعة الرافعي الايمانية . وقد هاجمه الرافعي بنقد لاذع مر في مقالات

عدة جمعت فيما بعد بعنوان (تحت راية القران)

٤ - القضاء والقدر . الرافعي يرضخ لمشيئة القدر واقتبال الحياة دون تذمر . وهي نزعة دينية بحتة شرقية ايضا .

٥ - الطفولية . يكثر الكلام عن الطفولية باقوال خالدة ويشيد بطفولية القلب . والايمان في نظره حالة من حالات الطفولية الناصعة .

٦ - نزعته الافلاطونية . لا تخلو كتبه من نزعة افلاطونية يستشفها القارئ من وقت الى اخر لانه يتغنى كثيرا بعالم فوق هذا العالم ويتدرج صعدا في ارتفاعه من حقائق ادنى الى حقائق اعلى .

ان الفصل الذي يلي هذا الكلام يحوم حول القصة عند الرافعي . وقد لعبت دورا كبيرا في ادبه ولها طابعان :

طابع تاريخي . اي ان الرافعي كان يعتمد على حادثة من حوادث التاريخ الاسلامي ليكتب قصته

طابع اجتماعي . اي ان بعض هذه القصص مقتبس من صميم الحياة الرافعية . فقد كانت نفس الرافعي كعدسة آلة التصوير سريعة في التقاط المشاهد التي تمر على مسرح الايام . من هذه القصص قصة الطفولتان، الشيطان ، الجمال البائس .

الرافعي الشاعر : امتاز شعره بالمتانة والقوة . وبذلك كان مقلدا للاقدمين . اما الخيال عنده فهو باهت الى حد بعيد . كانك وانت تقرا شعره امام هيكل عظمي لا صفوة بيانية فيه ولا عذوبة تترقرق في ثناياه . فقد عجز في ميدان الشعر عن اداء لوامعه الباطنية . ولا بد للقارئ عندما يترك نثر الرافعي ليبدأ بشعره من الاحساس بانه يهبط من علو شاهق الى مهوى سحيق كانه القي من سماء الى حضيض . لذلك لن يخلد الرافعي بشعره ولن يبقى من ديوانه ما تتباهى به الاجيال المقبلة . فهو مقصر في هذه الحلبة وعاجز .

الرافعي الناقد . ان نقد الرافعي يشبه هجاء الاقدمين يوم كانوا يتراشقون سهام السباب فقد ظهرت عصبيته الجامحة في هذا الميدان النقدي باجلى مظاهرها وبرز حاقدا ناقما ينحرف عن الجدل المنطقي الرصين والبحث العلمي . وهجماته معروفة في تاريخ الادب ضد طه حسين والعقاد ان هذه المشاحنات في ميدان الادب سيطويها النسيان وهي موجة مرت على ادبنا الحديث اكسبته طابعا جديدا من النقد الجامح ، ولكنه باب يجب علينا ان نغلقه ، لذلك لم نبحث فيه مطولا في هذه الرسالة .